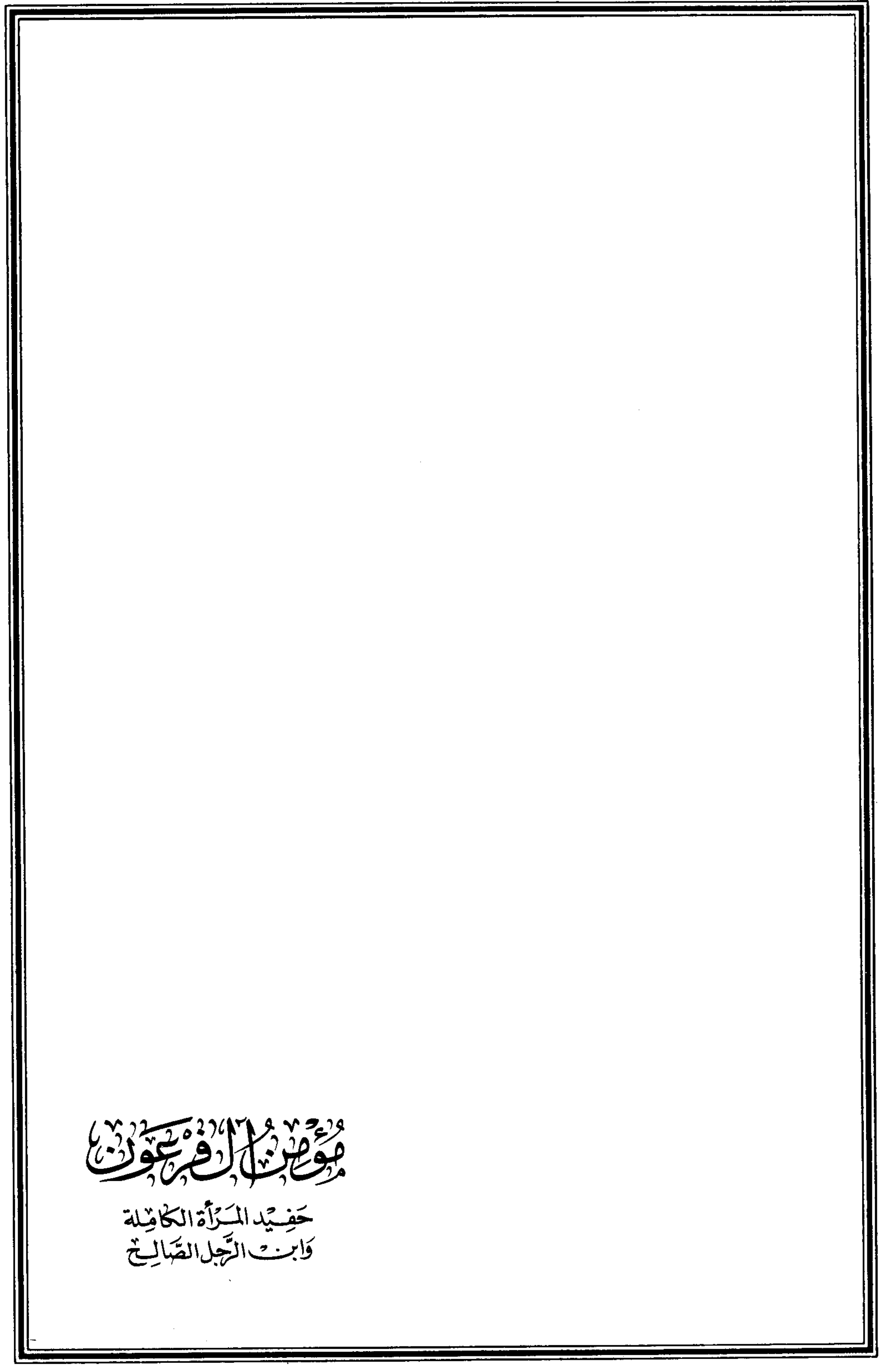
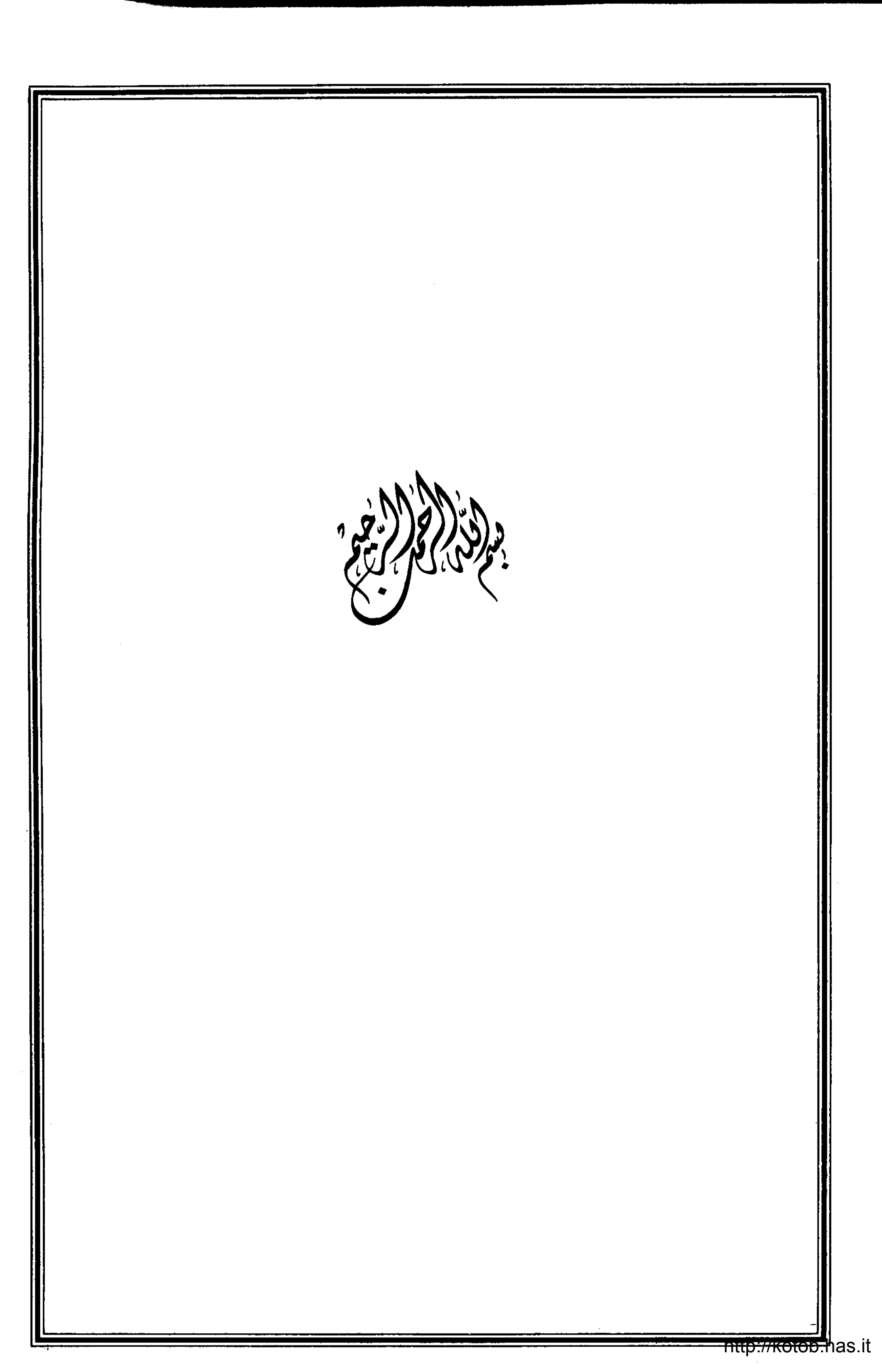


مؤمن آل فرعون

حفيد المرأة الكاملة
وابن الرجل الصالح


بسم الله الرحمن الرحيم



حفيد المرأة الكاملة
وابن الرجل الصالح

د. الشفيع الماحي أحمد

دار ابن حزم

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

الفهرست

مدخل



بلغ من شدة ارتباط شخص فرعون بدعوة موسى عليه السلام ورسالته حداً أُطلق عليه وعلى سبيل التعريف بذاته اسم (فرعون موسى). وحل الاسم بتقادم العهد ومرور الأيام محل اسمه الحقيقي. واقتصرت أَحداث ووقائع الفترة التي أُرسل فيها موسى عليه السلام نبياً ومنقذاً لقومه عليهما وحدهما. دون أَن تتيح طبيعة الرسالة وخصوصيتها. وذاتية فرعون كممثل أَرضي للإله الخالق، ومفتاح سر الحياة للناس أجمعين أَي مجال لبروز شخص آخر يقاسمهما ولو حظاً ضئيلاً في صنع الأَحداث أو التأثير فيها.

والشخص الوحيد الذي قدر له المشاركة الإِيجابية في أَحداث ذلك الزمان. وارتبط اسمه باسميهما، لم يكن تأثيره في الأَحداث يرقى إلى درجة تبوُّئه مكاناً بارزاً ومرموقاً. بل وقف وبحكم خصوصية الرسالة ومحدوديتها الزمانية، وبحكم أَلوهية الذات الفرعونية. موقفاً أَظهر فيه قوة انتمائه للفرعون وآله. وأبدى حرصاً وخوفاً على مصالح قومه من عواقب تحدي موسى عليه السلام ومجابهته بقوة الدولة وسلطان فرعون. وفي الوقت نفسه أَبطن اعترافاً بموسى ونبؤته. وإقراراً داخلياً برسالته. فاستأهل بموقفه القلبي الباطني اسم الإيمان وصفته. وبالموقف الظاهري نسبته وانتسابه إلى آل فرعون.

أَما الوقت الذي تمكن فيه مؤمن آل فرعون من الظهور فهو حين خفت قبضة الذات الفرعونية. وأَتاحت شخصيته المتعالية وطغيانه مجالاً

للمشاركة في مجريات الأحداث. ولكن بإبداء الرأي والمشورة، عندئذ استغل المؤمن هذه السانحة الفريدة ووقف موقفاً يمكن اعتباره بحق الموقف الوحيد والمستقل الذي أُرخ فيه لأحد في تلك الأيام.

وعلى الرغم من أن مؤمن آل فرعون لم يظهر على مسرح تلك الأحداث إلا مرة واحدة فقط. إلا أنه وبحكم انتمائه لفرعون موسى. وعلاقته الوطيدة بالبلاط الفرعوني قد عاش في قلب الأحداث التي جوبه فيها موسى عليه السلام بجبروت الفرعون وتكبره. وشارك فيها مراقباً كواحد من آل فرعون يسير دوماً في معية فرعون وركابه، ولا يرى كسواه من الناس إلا ما يراه هو.

وتهدف الفصول التالية وفي المقام الأول للكشف عن شخص مؤمن آل فرعون، واستجلاء موقفه الفريد بين معسكري الكفر والإيمان. وذلك من خلال المواجهات الكثيرة والمتنوعة بين موسى عليه السلام وفرعون موسى، والتي أدت به ليس فقط للظهور المفاجىء في قلب تلك الأحداث، بل أيضاً للارتباط بهما ارتباطاً وثيقاً يبقى ما بقى ذكر لموسى وفرعون.

الفصل الأول
فرعون موسى



الذات الفرعونية:

إن الجانب الذاتي من شخصية كل حاكم على مصر الفرعونية، وجالس على عرش البلاد، بل وكل ما يعد مظهراً لذاته الواعية وحقيقة وجوده المعينة، وما يدركه هو من جهة ويعبر عنه بقوله (أنا) من جهة أخرى. هو كونه يتبوأ مركزاً إلهياً وبطبيعة إلهية، على الرغم من كونه إنساناً وله جسم من لحم ودم كسائر خلق الله. وبالألوهية امتاز وتفرد على غيره. وبها تجلى على الوجود لتصبح من خصوصياته الذاتية بلا مشاركة لأحد من الناس. ثم استقلت تلك الألوهية في أذهان رعيته اعتقاداً وسلوكاً لتعبر في خاتمة المطاف عن وجوده وذاته معاً.

وككل إله قائم بنفسه ومستغن عن غيره، اتخذ لذاته المتعالية المخصوصة ولحقيقة وجوده المغينة، صفات متعلقة بذاته ودالة على بعض أحوالها، وفيها التعبير المباشر عن حقيقة وجوده وذاته. ولكنها وعلى المستوى العلمي والمعرفي دالة على نسبة إلى غير ذاته. ويتوقف فهم تلك النسبة المستقلة وإدراكها بل وتعلقها على الوجود والذات معاً.

ولأجل هذا عُرِف عن كل من يعتلي العرش والحكم بأنه إله، وإله عظيم جداً، له القدرة المطلقة والهيمنة الكاملة على الطبيعة

والكون يصرفهما دوماً وفقاً لما فيه خير ومنفعة اتباعه، كما له الفضل الكبير في أخصاب الأرض وحدوث الفيضان والتحكم في مياه النيل وغيرها من مظاهر تأثيره في الوجود إحياءً وإعداماً، وقد عبر أحد هؤلاء عن مدى تمكنه واقتداره بقوله:

«كنت دوماً أؤمّن طلوع الشعير»[١].

وفي دعاء تابع من أتباع [امنحتب] يؤكد على المعنى نفسه فيقول:

«فلتجعل البلاد مزدهرة مثلما كانت عليه في قديم الزمان»[٢].

ومع حاجة الخلق إليه في ذواتهم وصفاتهم، واستغنائه هو عنهم بذاته، يعرف أيضاً بأنه غير محدود المعرفة. يحيط علماً بكل شيء، لا تخفى عليه خافية. يقول أحدهم في وصف لواحد منهم:

«إنما كان سريع الإدراك، خبيراً ببواطن الأمور وظواهرها. ما كان يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحاط بها علماً. فكان في ذلك كالإله تحوت في معارفه، يكاد يتنبأ بالحوادث قبل وقوعها، ولا أعرف ما صعب على الناس إلا وجد الملك له مخرجاً»[٣].

أما المعاني الكامنة في ذاته، وما يدل على ما في ذاته من علم ومعرفة، ويعبر عنه بالألفاظ، أوامراً كانت أم نواهي، إخباراً أم استخباراً، فهي قانونه المقدس وشريعته الواضحة النيرة، بها يهتدي الناس في حياتهم الدينية والدنيوية. وهو لا ينطق إلا بالحق والصدق. وما يراه ويستصوبه فيه صلاح للناس ومنفعة لهم، لا يدخر منها شيء لنفسه، ولا يطلب منهم مما تقضي به إرادته وحكمته في شئون الحياة إلا أن يجعلوا من إرادتهم واختيارهم تبعاً لإرادته وموافقة لها.

---

(١) تاريخ الحضارات العام ـ المجلد الأول ـ أندرية إيمار ص ٤٧.

(٢) المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الأمبراطورية ـ أحمد قدري ص ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٧.

غير أن حياة ذلك الإله والتي جوزت تعلق الصفات بذاته هي بصرف النظر عن أي اعتبار آخر حياة كحياة سائر الخلق، ولكنها في حقه أوجبت له قدراً من الكمال جعله يتعالى في مقامه الإلهي بحيث لا يخاطر أحد من رعيته ولا يجرؤ على الاقتراب منه دون أن تستولي عليه الرهبة والخوف، وترتعد فرائضه فزعاً من شخصه، وبالتالي يحرم النظر إلى وجهه أو لمس جسده الطاهر المقدس.

أما الاتصال به فليس متاحاً إلا لخاصته وذوي قرباه، وهؤلاء إذا أراد الواحد الدنو منه أو محادثته عن قرب فيجب عليه أن يخر ساجداً مقبلاً الأرض تحت قدميه، معفراً جبينه تحت مقام عزته. أما أفراد أسرته فأكبر حظوة ينالونها، وأعظم شرف يسعدون به هو تقبيل قدميه. وقد يسمح لهم استثناءً بتقبيل ركبته، كأقصى حد يرقى إليه غيره من ذاته المؤلهة.

وعندما يظهر بكامل ذاته السلطانية على شرفة قصره. أو يهل بطلعته البهية مشاركاً في مناسبات الحياة المختلفة، فإن الرعية تشبه طلوعه عليهم بطلوع الشمس، فيقولون «تألق» و «يشرق في أفقه»[1] إلى غيرها من العبارات الدالة على جلاله وعظمته، وبدلاً من قولهم: توفي أو مات، يقولون: اختفى في السماء أو اتحد مع الشمس، إذ هو في اعتقادهم لا ينتمي إلا لمملكة السماء، وباعتلاء حاكم جديد على البلاد بدلاً عنه، يبتهج الناس ويفرحون، لأن أحد الآلهة أقيم رئيساً به تستقيم أمورهم، ويدفع عنهم الكوارث الطبيعية. ويمنع من حدوث أي اختلال يفقد الوجود تماسكه وانسجامه.

وبنفس القدر الذي عظمت فيه ذات ذلك الحاكم وأجلّت، اعتبر اسمه الخاص مقدساً وطاهراً. يصان فلا ينجس بالنطق، ويكرم ويحترم فلا يتداول في مجالسهم إلى حد الابتذال، ومن ثم استعاضوا عنه

---

(١) مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ـ أدولف أرمان ص ٤٧.

بألقاب وكنى كثيرة، أكثرها شيوعاً لقب (فرعون)، مشيرين به إلى شخصه المبجل، ومتحاشين في الوقت نفسه أي ذكر لاسمه صراحة أو تلميحاً.

واللقب مكون وبناء على أصوله اللغوية القديمة من مقطعين (پر) و (عا) أو (عو)، الأول (پر) يرد عادة بمعنى بيت أو معبد أو قصر وما في حكمها، و (عا) أو (عو) يتخذ في الغالب معاني مجردة عدة تدور حول العظمة والكبر فيأتي دوماً بمعنى العظيم أو الكبير أو المرتفع أو العالي، فيستفاد من اتحادهما معاً معنى البيت الكبير أو البيت الرفيع أو البيت العظيم أو المقام السامي، تماماً مثلما كان يعبر عن السلطان التركي بالباب العالي. ومثلما يرد الآن ذكر البيت الأبيض فيقصد به الرئيس الأمريكي.

غير أن كلمة بر وكما ثبت في اللغة واللسان الهيروغليفي تنطق الباء فيها وتكتب كما ينطق حرف P في اللغة الإنجليزية، وتكتب في العربية باء بثلاث نقط تفخيماً وتثقيلاً للنطق. وعندما نقلت إلى اللغة العبرية تحولت الباء إلى فاء، ومن ثم نطقت الكلمة فر وليس پر كما في الأصل. وبالنطق ذاته نقلت إلى اليونانية ومنها تلقته سائر اللغات اللاتينية وعلى رأسها الإنجليزية حيث تنطق بالفاء وتكتب بحرفي (ph) (Pharoa). أسوة باليونانية والتي تجعل حرفي (ph) في مقابل حرف F. أما العربية فبمقارنة بسيطة لمفرداتها التي تبدأ بحرفي الباء والفاء نجد تبادلاً فيما بينهما في النطق والكتابة، لا يمنع من إحلال أحدهما محل الآخر، ولذلك انقلبت الباء في الكلمة فاء. وهو ما أثبته القرآن الكريم للعبارة أو للقب كحقيقة بديهية درجت عليها اللغات العروبية واللسان العربي.

وأياً ما كان الأمر فقد شاع استعمال اللقب واستفاض حتى استعمل كما لو كان اسم علم يطلق على كل من يتبوأ عرش مصر القديمة، وبه نزل القرآن ليتناقله الناس فيما بينهم إلى يوم القيامة.

وذلك لأنه هو المعبر الحقيقي عن ذاته ووجوده من حيث هو إنسان متأله ومؤله. ولعل خير من صور معناه وأعرب عن استعلائه على البشر أنشودة شعبية قديمة هي بالمرثية أشبه منها ببكاء المسحوقين تحت قهر الفرعون وجبروته، جاء فيها:

اعمل يا أخي فالراحة قريبة. فرعون باق إلى الأبد.

وحوش وطيور الأرض والسماء وما يزحف وما يطير.

الكل يجب أن يعمل ولا بد أن يموت. ولكن فرعون باق إلى الأبد.

اعمل يا أخي أثناء هذا النهار، فرعون باق إلى الأبد.

الأنهار تتناقص وتضمحل والصخور تتفتت كالطين.

الشعوب تتضاءل لتبلى ولكن فرعون باق إلى الأبد.

اعمل فنصيبك الموت. فرعون باق إلى الأبد.

الظل يمر عبر الظلام، فجيل يروح وجيل يجيء.

الملوك تنزل إلى القبر، لكن فرعون باق إلى الأبد[١].

فلا عجب بعد كل هذا أن تبلور كل شيء في الدولة والمجتمع حول ذات الفرعون بألوهيته المتجسدة. فاعتبر روح الحياة وملحها. وقلب البلاد النابض. فقبض بكلتا يديه على كل السلطات. فأصبح هو المشرع الوحيد، والقاضي الوحيد، والقائد العسكري الوحيد. والإداري الوحيد. ومالك الأرض وما عليها، والمتصرف فيها تصرفاً مطلقاً. وكل ما يملكه الأفراد، وجميع المراكز التي يشغلونها في النظام الإداري للدولة، بل وحتى السلطات المحدودة المخولة لهم. ما هي

---

(١) الساكنون على النيل - وأليس بودج ص ٤٩.

إلا منحة تفضل بها عليهم، وعارية ترد إليه متى شاءت إرادته.

وفوق ذلك كله هو المرجع الأول والأخير في جميع ما يتصل بحياة الناس العادية. بل هو محور حركتهم في الوجود، والمرتكز الذي تدور عليه مجريات أمورهم اليومية. فما من بيع أو شراء، عقود أو اتفاقيات، إلا ويجب على الطرفين عند الالتزام بما يفرضه عليهم القسم الحلف باسم الفرعون، إذ أن كل ما يتعلق بأمر من أمور الحياة منبثق منه وخاضع لسيطرته.

ولم يقتصر الفرعون على هذا وحده، بل أراد أن يجسد ذاته المؤلهة والمتألهة في معنى رمزي يقوم بنفسه ولا يسير غوره بسهولة، ويستقل عن ذاته في الوجود، ويضرب عميقاً في ذاكرة الناس على امتداد تاريخهم وتعاقب أجيالهم. وينسب إليه نسبة حقيقية لا كنسبة الصفة إلى موصوفها. وإنما كنسبة الحق إلى صاحبه. والمِلك إلى مالكه، وفي الوقت الذي يضمحل فيه الجانب البشري من ذاته ويفني، وتتلاشى عناصره الترابية، يقف هذا الرمز شامخاً بحيث تكون ذاته مشهودة فيه وشاهدة له وشاهدة عليه. وعلى النحو الذي يتحد فيه المشهود والشاهد والشهادة.

والمعنى الرمزي الذي تجسد ظاهراً بلا إضمار ولا تضمن، وفي صورة وحيدة مبتكرة ومتميزة. وفيه تغلغلت الذات الفرعونية على المستويين المادي الفاني. والمعقول الباقي. ونصب كالعلم عليه هو ما حفظه له القرآن الكريم في تأريخه له. تماماً كما أراد هو أن يحفظه لنفسه، فقال تعالى حاكياً عنه وواصفاً له:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾[1].

وقال أيضاً:

---

(١) سورة ص: الآية ١٢.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾[١].

والأوتاد ـ كما هو معروف ـ هي أعواد فيها شيء من الغلظة مفلطحة الرأس تدق في الأرض لتشد وتقوي بها حبال بيت الشعر أو الخيمة، واستخدمت الأوتاد بالمدلول السابق كاستعارة لثبات الملك والعز، فيقال عز ثابت الأوتاد بمعنى ملكاً شديداً دائماً ثابت الأركان موطد القواعد لا تهزه الشدائد. ويصمد أمام تقلبات الدهر. ثم يطلق الوتد مفرداً ويراد به كل ما يغرز ويثبت من خشب أو حديد أو حجر في الأرض وغيرها. وعلى عمق مقدر يخدم الغرض الذي غرز وثبت من أجله.

أما اللغة الهيروغليفية فقد عبرت عن الأوتاد والوتد بكلمة تخن أو تخنا Tekhenu. والكلمة في إيحاءاتها لمعاني الوتد تقرب إلى أصول اللغات العروبية، ومطابقة إلى حد كبير مع كلمة ثخن في عربية القرآن الكريم. وذلك لأن دلالة الكلمة الجامعة تتمحور حول ثقل مقدر للأشياء ناتج عن كثافة وصلابة فيه. ثم استخدمت للدلالة على الأبعاد الثلاثة النافذة للأجسام، أو الامتداد في الحيز والفراغ طولاً وعرضاً وعمقاً بحيث تظهر كتلته أو ثخنه منبسطاً في بعدين اثنين: إما نازلاً، أي آخذاً من فوق إلى أسفل فيسمى عمقاً. كما في الماء ونحوه، أو صاعداً، أي آخذاً من الأسفل إلى فوق فيسمى سمكاً، كما هو الحال في النباتات وغيرها.

وعلى هذا فالتخن أو التخنا لا يبعد كثيراً في دلالته تلك عن كونه كتلة يتوفر لها قدر معين من الكثافة والصلابة والغلظة، وله سمك محدود، ويشغل كغيره من الأجسام حيزاً تنفذ أبعاده طولاً وعرضاً وعمقاً، وعندما انتقلت الكلمة حاملة تلك الدلالات الموحية بمعاني

---

(١) سورة الفجر: الآيات ٦ ـ ١٠.

الوتد والأوتاد إلى الأغريق أطلقوا عليها معنى تصغيري يكشف عن كنهها فسموها أوبلسيك Obelisk، ويقصدون به لسان الأرض الصغير أو الأسياخ. وأطلق عليها العرب لغرابة شكلها، وقرب هيئتها من الأبر الكبيرة التي تخاط بها الأكياس الواسعة اسم المسلة.

والقرآن الكريم هو وحده الذي أخبر بالصدق عما قصده الفراعنة وسعوا لإظهاره. فسماها بالأوتاد. وهو اسم لا يعبر فقط عن شكلها وهيئتها والصورة التي برزت بها للوجود. بل أيضاً يعبر عن المدلول الرمزي الذي تجسده.

وتحقيقاً لهذه الغاية فقد اختط مهندسو الفراعنة أُسس هندسية وحسابية متناهية في دقتها حتى تأتي الأوتاد مطابقة لتلك المعاني. فأول ما يفعلونه هو اختيار أنسب الأمكنة وأصلحها في الجبال والمحاجر وبمواصفات خاصة، ثم يصطفى من بينها ما يشكل وحدة صخرية متجانسة في اللون والكتلة الحجرية، وبلا أي شوائب، وخالية من الشقوق، وعلى ضوئها يحدد حجم الوتد وطوله وأبعاده المختلفة، وذلك فوق الكتلة الصخرية المصطفاة. يحفر بعدئذ شقين طوليين أشبه ما يكونا بالممر، ثم يقومون بعدها بأحداث فجوات في أماكن متفرقة قريبة من بعضها. توضع بها قطع مخروطية الشكل من الخشب تغرق في الماء بعد دفنها في تلك الفجوات مما يساعد على تمدد الخشب، ويؤدي التمدد بدوره إلى تشقق الفجوة.

يعقب ذلك المرحلة الثانية حيث يحفر العمال لتخليص الوتد من الجانبين. يتجه بعدها المهندسون وبعناية فائقة وحذر شديد إلى نزع الوتد من تحت سطح الحجر، تمهيداً لرفعه، وغالباً ما كانوا يضعون الحبال تحت الجزء المنزوع ليسهل عليهم فيما بعد ربط الوتد وسحبه خارج الكتلة الصخرية.

حينئذ يظهر إلى الوجود عامود ذو قطاع مربع يتفاوت طوله وعرضه تبعاً للمواصفات والمقاييس المرادة. ومنحوت من قطعة

صخرية واحدة من الصخور الصلبة الكثيفة ومنسجم ومتناسق في لونه، لا تشوبه شائبة، وأي خلل أو تنافر في وحدته وتناسقه يجرده من مدلول الوتد وصفة الأوتاد، وبالتالي يفقد المعنى الرمزي دلالته ومفهومه. ويرقد الآن وتد ضخم في إحدى محاجر أسوان، محفور من الجانبين، وأزيحت الأحجار من حوله. وقبل المرحلة النهائية وهي تخليصه من سطح الحجر، ظهرت عليه بعض أعراض التشقق، فنفض المهندسون أيديهم منه وترك على حالته تلك.

وقد تحدث أحد مهندسي أوتاد فراعنة القرن الخامس عشر قبل الميلاد عن مهارته، ودقة صنعه، وكمال عمله، منذ انتزاع الوتد من الصخور وحتى تثبيته أمام معبد الفرعون. فقال متباهياً بما أنجزه:

«وبعدما قمت بإقامة قاعة المعبد الفاخرة بأعمدة على هيئة سيقان البردي. أقمت وتدين من الجرانيت الأحمر كل منهما قطعة واحدة. وقد بنيت لهما سفينة فاخرة طولها مائة وعشرون ذراعاً لنقلهما من محاجر أسوان إلى طيبة، وقد أحضرتهما سليمين لم يمسا بسوء وأُنزلا في الكرنك»[١].

لا يعرف بالتحديد الكيفية التي تثبت بها هذه الأوتاد في الأرض. ولا الطريقة التي تغرز بها. فكثرت التخمينات واختلفت الأراء، لعل أقربها إلى الصواب هاتين الطريقتين:

الأولى: تحفر بئر على شكل هرم ناقص قاعدته الكبرى من أعلى وقاعدته الصغرى من أسفل حيث توضع قاعدة الجرانيت التي تحمل الوتد. ويوجد بقاع البئر باب لإزالة التراب والرمال، وفكرة عمل بئر لضمان هبوط الوتد ببطء وهدوء على القاعدة، وحتى لا يترنح عند إقامته.

(١) العمارة والحضارة في مصر القديمة ـ توفيق أحمد عبد الجواد ص ٢٨٠.



أحد الأوتاد الذي ظهرت عليه بعض التشققات ففقد مدلوله الرمزي

الثانية: وهي ما تصوره المهندس الأثري انجلباخ الذي يرى: «أن الوتد كان يسحب وقاعدته إلى الأمام على طريق مساعد أُعد خصيصاً لذلك حتى تصل إلى نهايته لكي ينزل على قاعدته بين بنائين ضخمين مشيدين من الحجر والطين، ثم بعد ذلك تملأ الفجوة التي فوق القاعدة التي بين البنائين بالرمل الناعم ليكون تحت جسم الوتد، ثم يبدأ في سحب الوتد حتى يصل ثلثه أو أكثر قليلاً فوق الجزء المنحني من البناء المشيد بالحجر والطين. وعندما يبدأ الوتد في الميل على الرمل، يبدأ العمال في سحب الرمل. وبالتالي أسقاط الوتد حتى يقف تماماً، وبعد ذلك تزال جميع الأتربة المحاطة به»[1].

وعلى امتداد تاريخ الفراعنة الطويل نصبت الأوتاد مجسدة لتلك المعاني الرمزية حتى تحولت في اعتقادهم إلى ميراث وحق طبيعي للفرعون يخلد فيه ذاته. ولم يهمل أو يغفل عنه إلا في حالات الاضطرابات والقلاقل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والتي تضمحل فيها فكرة الفرعون كمرتكز أساسي يقوم عليه بناء الدولة ونظام المجتمع.

ظهرت هذه الأوتاد أول ما ظهرت كحقيقة متكاملة تجسد ذات الفرعون في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد أبان حكم فراعنة الأسرة الخامسة. حيث كانت تنصب على أيامهم في مؤخرة المعابد، وتكسي ذروتها برقائق من الذهب أو خليط الذهب والفضة، وعندما تسقط عليها أشعة الشمس تجعلها متوهجة كالشمس، وتبدو للرائي من بعيد وكأنها شمس صغيرة ترسل أشعتها يميناً ويساراً فتخلب الألباب وتأسر القلوب.

أما أقدم وتد نصب لذات الأغراض والمعاني وعته ذاكرة التاريخ، ولا يزال موجوداً بهيئته التي ثبت عليها هو الذي أقامه

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٩ و ٢٧٤.

الفرعون سنوسرت الثاني من فراعنة الأسرة الثانية عشرة (حوالي ١٩٧٥ ق. م) حيث يبلغ ارتفاعه ٢٠,٤ متراً ويقدر وزنه بـ ١٢٥ طناً، وعلى جوانبه الأربعة كتابات تفيد المعنى الذي سعى الفرعون لإبقاءه حياً بين الناس على مر العصور، جاء فيها:

«إن حورس الذي ولد من الحياة، ملك الجنوب والشمال خبر كارع، سيد نخبت وواجت المولود من الحياة، ابن الشمس رع سنوسرت من أرواح محبوبة تعيش إلى الأبد. حورس الذهبي المولود من الحياة، الإله الجميل خبر كارع (سنوسرت) أقام هذا الوتد في اليوم الأول من عيد السد، واهب الحياة ليعيش إلى الأبد»[١].

ولم يسجل فراعنة الأسرة الثالثة عشرة وحتى الأسرة السابعة عشرة أي نشاط يذكر في مجال نصب الأوتاد. كما لم يعثر على أثر لها خلال هذه الحقبة، على الرغم من أن المعمار والأبنية الشامخة ظلت دوماً الطابع المميز لحكم الفرعون، ولعل مرد عدم الاهتمام به يعود - كما بينا قبل قليل - إلى ضمور فكرة الذات الفرعونية كمحور يدور عليه بناء الدولة بنظاميها السياسي والاجتماعي.

وباعتلاء الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠ ق. م) سدة الحكم بدأت الأوتاد في الظهور بكثرة لافتة للنظر. حيث يعد تحوت موس الأول من أوائل من غرز الأوتاد لفراعنة هذه الأسرة، إذ نصب وتدين أمام البوابة الرئيسية لمعبد أمون، وهما من تصميم المهندس (أنني)، وكلاهما قد نحتا من قطعة واحدة من الجرانيت الوردي، ويبلغ طول كل منهما ٢١,٧٥ متراً، وطول قاعدتهما ١,٨٤ متراً ويقدر وزنهما التقريبي بـ ١٤٥ طناً. وهما الآن يقفان بشموخ في الفناء الذي يتوسط الصرحين الثالث والرابع للمعبد. أحدهما خال تماماً من النقوش، بينما نقش على جوانب الآخر ما نصه:

---

(١) الشرق الأوسط في موكب الحضارة ج (١) محمد كمال الدين ص ١٢٩.

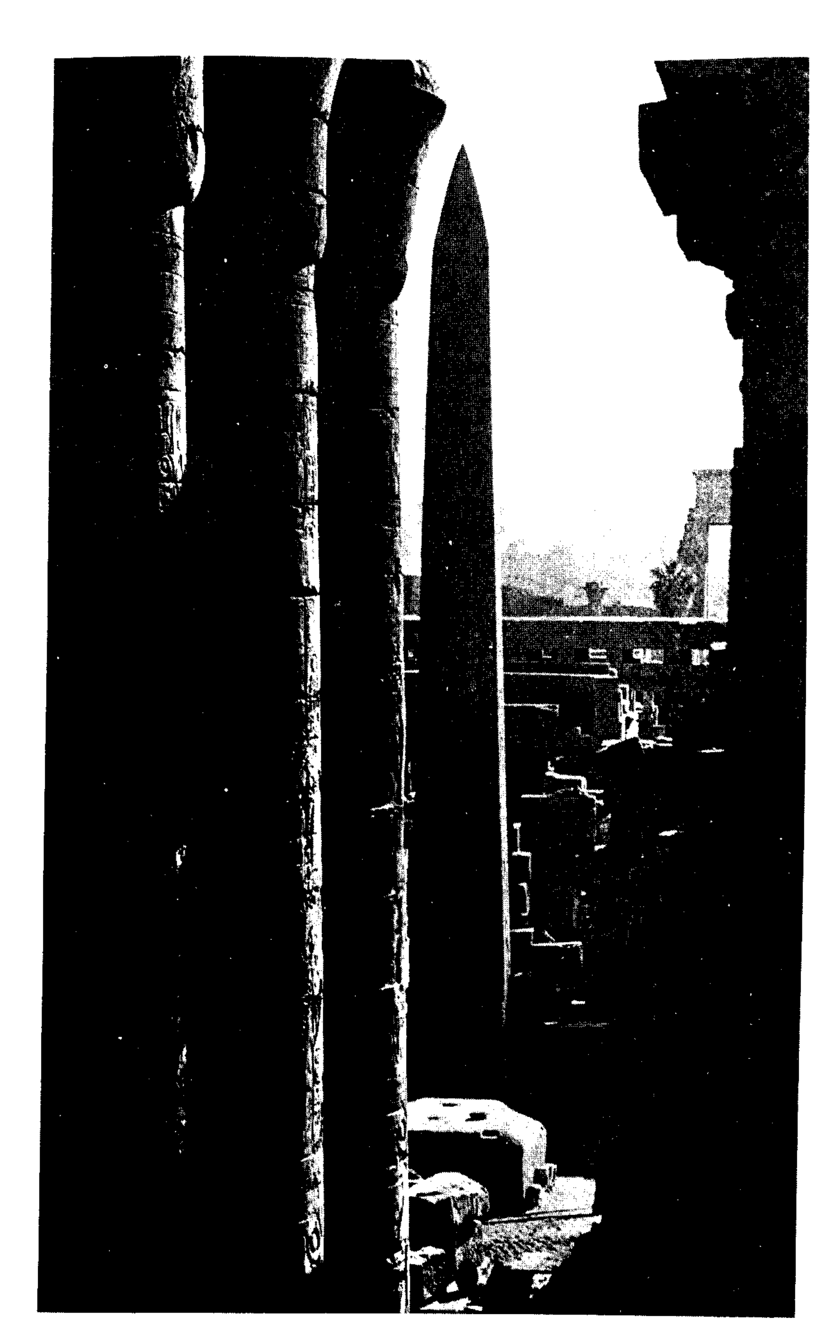
«حورس القوي محبوب ماعت ملك الوجه القبلي والوجه البحري عا خبر كا رع أقامه في عيد سد الثلاثين تذكاراً لوالده أمون رع سيد الأرضين. وأقام وتدين أمام معبده قمتهما الهرمية من السام المضيء»[1].

وحينما خلفت حتشبسوت أباها في الحكم حذت حذوه فكلفت المهندس سنموت بنحت وتدين من الحجر الوردي من محاجر أسوان لينصبا معاً في فناء الأعمدة الذي يتوسط الصرحين الرابع والخامس من معابد الكرنك. ولا يزال أحدهما واقفاً في مكانه إلى اليوم. وبارتفاع يبلغ **٢٩,٥٠** متراً، على قاعدة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها **٢,٦٥** متراً، بوزن يقدر بـ **٣٢٥** طناً، ونقشت على جوانبه ما يلي:

«أقيم هذا الأثر لأبي الإله أمون رع رب عروش الأرضين الكائن في طيبة. لقد قمت بهذا العمل من قلب مفعم بالحب لأبي الإله أمون، لقد دخلت إلى الطريق الذي قادني إليه منذ البداية. وكل أعمالي تمت كإرادته، وإني لأذكر ذلك للأجيال القادمة التي تسأل عنه في المستقبل، لقد كنت أجلس في هذا القصر وكنت أفكر في خالقي حين حفزني إلى أن أقيم وتدان رأسهما في السماء في بهو الأعمدة بين الصرحين اللذين أقامهما الفرعون تحوت موس الأول. إن قلبي دفعني أن أفكر فيما سيقوله الناس. أنتم يا من سترون هذا الأثر على مر السنين وسوف تتحدثون عما فعلت. احذروا أن تقولوا نحن لا نعرف لماذا أقيمت هذه الأشياء، أن هذين الوتدين هما لأبي أمون حتى يبقى اسمي مخلداً في هذا المعبد إلى الأبد، أنها من حجر واحد من الجرانيت بدون وصلة أو انقسام، وقد تم العمل فيهما من المحجر في سبعة شهور فقط[2]».

(١) العمارة والحضارة ـ توفيق عبد الجواد ص ٢٧٨.

(٢) العمارة والحضارة. توفيق عبد الجواد ص ٢٦٣.



وتد تحوت موس الأول أمام البوابة الرئيسية لمعبد أمون الكرنك



وتد تحوت موس الأول في استانبول

أما تحوت موس الثالث فقد نحت لنفسه ستة أوتاد، بواقع اثنين في كل عيد من الأعياد التي يحتفل بها، فأقام الاثنين الأولين في العيد الأول أمام الصرح السابع جنوب الكرنك. ولم يبق الآن إلا جزء يسير من أحدهما. وفي العيد الثاني لتتويجه نصب وتدين آخرين نقل أحدهما الأمبراطور الروماني ثيودورس من طيبة إلى روما عام ٥١٠ م، وهو في الواقع الجزء الأعلى من الوتد. وحالياً يبلغ ارتفاع الجزء المقام منه ٨٥ قدماً، وعلى جوانبه حفرت العبارات التالية:

«من خبر رع (تحوت موس) رب النصر وفاتح كل البلاد الذي جعل حدوده تصل إلى قرون الأرض ومياه النهرين بقوة وظفر على رأس جيشه الظافر موقعاً مذبحة عظيمة بينهم، أقامه تخليداً لوالده أمون رع رب طيبة الذي رباه وهو طفل بين ذراعي الآلهة ـ نيت ـ الأم المقدسة ليكون فرعوناً، فهو الذي استولى على كل الأراضي طول الزمن بمشيئة رب الأعياد»[١].

أما الوتدان اللذان نحتهما في العيد الثالث لتتويجه فرعوناً فقد نقلهما الأمبراطور الروماني بورباروس عام ٢٣ م إلى الإسكندرية ومنها حمل إلى نيويورك حيث لا يزال قائماً ويحتوي العبارات التقليدية. جاء فيها.

«من خبر رع (تحوت موس) أقامه لوالده الإله رع الذي يضيء في طيبة محبوب الآلهة الباقي في الملك مثل أبيه رع في السماء، الذي أنجبه أتوم من جسده، وسوى تحوت في البيت العظيم أعضاءه، عالمين أنه سيدبر شئون الملك ليبقى إلى الأبد، ملك الوجهين القبلي والبحري، محبوب رع إله عين شمس والتاسوع المقدس الذي يمده بالحياة والثبات والسعادة، حور القوي الذي أخذ التاج الأبيض يضرب حكام الممالك التي تقترب منه، كما قرر والده رع له النصر على كل

(١) العمارة والحضارة ـ توفيق عبد الجواد ص ٢٨٧.

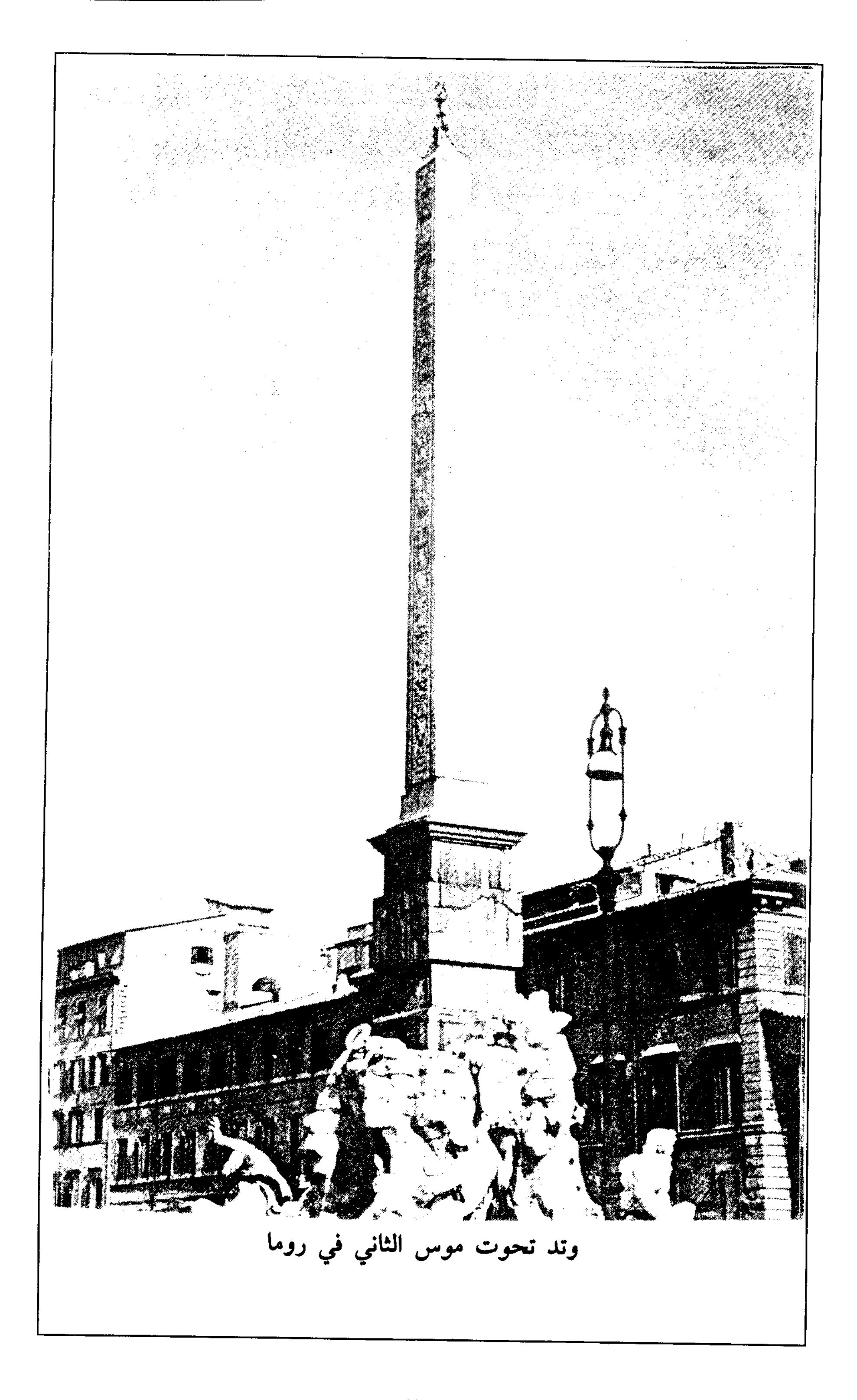
الأرض. وقوة السيف باقية في ساعده لأجل أن يمد حدود مصر ويحميها ابن الشمس تحوت موس»[1].

وقبيل وفاته كلف مهندسيه بإعداد وتد سابع. ولكن المنية عاجلته قبل أن يراه منصوباً، وبقي مهملاً قرابة خمس وثلاثون عاماً. إذ لم يكن ابنه وخليفته أمنحتب الثاني ميالاً لتجسيد ذاته في آثار أقيمت لغيره. ولما تولى الحكم تحوت موس الرابع وجد الوتد ملقى على جانبه، فأقامه، وبذلك يكون قد ساعد في نصب أكبر وتد في تاريخ الفراعنة، حيث يبلغ ارتفاعه ١٠٥ قدماً، ووزنه ٤٥٥ طناً، ونقش على جوانبه ما يدل على تقاسم كل من تحوت موس الثالث وحفيده تحوت موس الرابع في نحته وإقامته:

«ابن الشمس تحوت موس الرابع المضيء في التيجان أقامه في الكرنك، وصنع قمته من السام حتى إن جماله أصبح يشع على طيبة، وقد نحت باسم والده الإله الطيب من خبر رع (تحوت موس الثالث) ملك الوجه البحري والوجه القبلي. فعل ذلك رب الأرضين من خبر رع (تحوت موس الرابع) محبوب الآلهة، هو الذي جعل الفرد متناهياً في العظم، والذي فعل ما يسر رب الآلهة منذ أن عرف سمو تصميمه».

ولما انتقل الحكم إلى الأسرة التاسعة عشرة، اجتهد سيتي الأول في نصب الأوتاد أسوة بغيره من الفراعنة، ولكن لا يوجد له إلا وتد واحد مات عنه قبل اكتماله. فأكمله ابنه رع مس سو الثاني، وهو الذي نقل إلى روما وأقيم في ميدان بيازا دلبو بولو، ونقش على أحد جانبيه:

(١) العمارة والحضارة ـ توفيق عبد الجواد ص ٢٨٦.



وتد تحوت موس الثاني في روما



وتد سيتي الأول في روما

الكتابات التقليدية على جوانب وتد سيتي الأول

«من مات رع (سيتي الأول) صاحب الآثار الجميلة في عين شمس مكان الأبدية وعمد السماء الأربعة مخلدة وباقية في ردهة رع الإمامية، وتاسوع الآلهة مرتاحون لأعماله لبيت رع ليعيش مخلداً».

وعلى الجانب الآخر:

«رع مس سو (رمسيس الثاني) الذي أقام أعماله مثل نجوم السماء وأعماله تناطح القبة الزرقاء مبتهجاً بما يشرق عليه رع في بيت ملايين سنين، وإن جلالته هو الذي جعل هذا الأثر بالنقوش لوالده ليجعل اسمه خالداً في بيت رع وأتوم»[١].

وشغف رع مس سو (رمسيس الثاني) بنحت الأوتاد وإقامتها شغفاً فريداً لم يسبقه إليه أحد من الفراعنة، ولم يخلفه من يضارعه فيها، فجسد ذاته في حوالي اثنين وعشرين وتداً، منها ما يزيد عن أربع عشرة وتداً من تانيس (صا الحجر) تهشمت جميعها. وأقام أمام البوابة الرئيسية لمعبده في الأقصر ستة تماثيل ضخمة غرز أمامها وتدين من الجرانيت الوردي، أحدهما لا يزال منصوباً في مكانه ومكتوب على أحد جانبيه:

«لقد أقامه بمثابة أثر له لوالده أمون رع، فنصب له وتدين عظيمين من الجرانيت»[٢].

ونقل الثاني إلى باريس ليقف اليوم في ميدان الكونكورد في باريس ومنقوش عليه:

---

(١) العمارة والحضارة ـ توفيق عبد الجواد ص ٢٨٨.

(٢) مصر القديمة ج (٦) ـ سليم حسن ص ٣٩١.



وتد رع مس سو الثاني في القاهرة

«لقد أقامه رع مس سو بمثابة أثر له لوالده أمون رع. فنصب له وتداً عظيماً يسمى رع مس سو مري أمون ومحبوب أمون»[1].

رع مس سو (الوليد بن الريان): فرعون التسخير:

ما قلناه قبل قليل عن شدة ولع رع مس سو الثاني بنصب الأوتاد لا يمثل إلا جانباً من الأعمال الضخمة التي أنشأها خلال سني حكمه تجسيداً لذاته المتألهة، فمن المعروف أنه لا يوجد وعلى امتداد تاريخ الفراعنة من هو أكثر منه حباً وتعلقاً بتخليد ذكراه، وقد ساعده طول عمره (٩٥ عاماً). وطول فترة حكمه (٦٧ عاماً)، وأحاطته بمجموعة من المهندسين الأكفاء ذوي الخبرة العريضة في البناء والتعمير. على إنجاز عدد من المعابد والتماثيل والقصور فاقت في الكثرة والفخامة ما أنجزه غيره من الفراعنة، حتى يخيل أنه لا غرض له إلا تجسيد ذاته. ولا هم له إلا إشباع نفسه من العظمة والتفرد بكل الوسائل والطرق.

فلا غرو أن بلغ من الشهرة وذيوع الصيت ما تقاصرت دونه همم الحكام، وملأ سمع الدنيا وبصرها، وفرض اسمه وشخصه على عصره وعلى العصور التالية، وما فتئت الشعوب والأمم تتناقل في دهشة. وانبهار أخبار صلفه وعتوه وتكبره وقسوته، وبعبارات موجزة تعد تلخيصاً لشخصيته الفريدة، فمثلاً يصفه النيسابوري وصفاً يعد هو الآخر تلخيصاً لروايات إسلامية عدة يقول فيه:

«أملى الله لهذا الفرعون في كل باب من أبواب التملك والتسلط والترفع والتنعم والتمتع ما قد استخف به رعيته من أهل مملكته، حتى استعبدهم فعبدوه، وادعى الربوبية فقبلوه، مع ما أوتي من العمر الطويل والقوة والمنعة والسعة والجنود والشوكة والعدة والعدد، وكان

(١) مصر القديمة جـ (٦) سليم حسن ص ٣٩١.

قد بلغ من صحة جسمه واعتدال طبيعته وخلقته وقوة تركيبه وبنيته، أنه ربما لبث أربعين يوماً وليلة لا يخرج منه شيء إلا مرة واحدة، وهو مع ذلك يأكل ويشرب، ولا يبزق ولا يتمخط ولا يسعل ولا يأخذه وجع في بطنه ولا ترمد عيناه ولا يمرض ولا تصيبه آفة في نفسه ولا كراهة.

وقالوا: بلغ من إملاء الله تعالى له أنه كان يركب كل صعب وذلول من دوابه.

وقال سعيد بن جبير: ملك فرعون سبع وستون سنة لا يرى مكروهاً، ولو كان في تلك المدة أدرك جوع يوم أو حمى ليلة لما ادعى الربوبية، فلم يمسه سوء ولا مكروه. ولا تلقّاه إلا محبوب ومرغوب، وكان له قصر من قصوره مشرف منيف على ألف درجة، وسخر الله له دابة من دوابه يركبها فيصعد ذلك القصر عليها. وكان يركبها صاعداً نازلاً مع ما أنعم الله تعالى به عليه استدراجاً منه[١]».

إن دقة الروايات الإسلامية لا تقف عند حدود الوصف وحده، بل تتعداه إلى إيراد المرادف العربي لاسم الفرعون، والمطابق له تمام المطابقة في لسان القوم ولغتهم، فرع مس سو كما في رواية الطبري وابن الأثير وهو الوليد بن مصعب بن معاوية[٢]، وعند النيسابوري الوليد بن مصعب بن الريان[٣]، واكتفى ابن إسحاق بالقول: إنه الريان بن الوليد أو الوليد بن الريان[٤]، وذلك في معرض الكلام عنه بوصفه آخر من ملك من العمالقة.

(١) قصص الأنبياء ـ النيسابوري ص ١٦٧.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ص ٢٣١، والكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص ٣٣.
(٣) قصص الأنبياء ـ النيسابوري ص ١٦٧.
(٤) آلهة مصر العربية ـ علي فهمي خشيم ص ١٩٥.



رع مس سو الثاني الوليد بن الريان

وعدم الاتفاق في روايات الإسلاميين شيء مألوف، لم تر فيه حتى الروايات المعاصرة غضاضة أو شذوذاً. وهي روايات تستقي مباشرة من النصوص الفرعونية، الموثقة كتابة ونحتاً على الصخر. وليست كالروايات الإسلامية والتي تستند في الغالب على النقل الشفوي. فيرد الاسم تارة: رع مسسو من بحتي رع. وتارة: وسر ماعت رع ست بن رع[1]. والزيادة أو النقص لا تدحض في دقة الاسم ولا في صحته، وذلك لوجود قاسم مشترك بين الأسماء جميعاً وهما: مس و رع. وفي الترجمة العربية الوليد والريان.

إن كلمة مس وساموس تأتي في اللغة الهيروغليفية بمعنى ابن وولد وطفل. فمثلاً سارع بمعنى ابن الشمس وساحد بمعنى ابن الصقر، وتحوت موس بمعنى ولد تحوت أو ابن تحوت وأيضاً اح مس وأمون مس وبالمعنى الأخير نفسه.

أما رع فهو عندهم بمعنى الشمس، أو إله يرمز إليه بقرص الشمس، ولأجل ذلك عبدت الشمس عندهم بوصفها مصدر الرعاية والمحافظة والمراقبة، ودلالة الكلمة قريبة من الكلمات العربية رعى وراع ورعاية. وتفيد المعاني السابقة، فإذا عرفنا أن سنة اللغات العروبية هو التبادل في حروف الكلمات فلا عجب أن يحدث تبادل في حرفي العين والياء. فتحل العين محل الياء والعكس، ودون تغيير جوهري في المعنى، فتصبح رع ري. وهما ذاتهما رأ رأى ورؤية، وبمعنى اللمعان والتلألؤ، وتؤدي جميعها إلى معاني الحراسة والحفظ والمراقبة، مما يؤكد على أن الجذر اللغوي لرع هو ري. وزيدت عليه الألف والنون تقريباً له من أسماء الإعلام أو لمعنى يفيد بلسانهم ما يقتضي تلك الزيادة تفخيماً للمعبود.

وبانتقال الاسم في دلالته الواضحة على بنوة الفرعون إلى الإله

---

(١) مصر القديمة جـ (٦)، سليم حسن ص ٢١٣.

رع للشعوب المجاورة ومنها العرب، دون وسجل كمرادف طبيعي لما فهموه. ويطابق في المعنى لغة القوم، فترجموه ولد رع الصغير. أو صبي رع قريب عهد بالولادة، أي وليد رع، وذلك لأن الوليد هو الطفل من وقت ولادته وما يقاربها، فإذا نمى لم يسم وليداً وسمي طفلاً. وهو المعنى الذي انتهى إليه الأوروبيون عند فكهم لأسرار اللغة الهيروغليفية. فترجم الاسم في لغاتهم إلى: الإله رع هو الذي أنجبه أو الإله رع هو الذي خلقه.

ولعل تلك البنوة الإلهية وغلبتها على أسماء الفراعنة حتى ارتبط الاسم في أذهان الناس فعلاً ببنوة كل فرعون لإله من الآلهة هي التي كرهت الرسول ﷺ في أن يتسمى به أحد من المسلمين، فروي عنه أنه دخل ذات يوم على أم سلمة وبين يديها غلام أطلق عليه اسم الوليد تحبباً فيه، وعطفاً عليه، ورحمة به. كما يحب ويعطف ويرحم كل طفل حديث عهد بالولادة فقال لها:

«اتخذتم الوليد حناناً، غيروا اسمه»[١].

وأياً ما كان أمر تلك البنوة الإلهية وحقيقتها. فمن الثابت أن الذات الفرعونية وكما قلنا ذات مقدسة، وتنأى بألوهيتها عن التعرض لما يحط من رفعتها وسموها. وفي عهد هذا الفرعون (رع مس سو)، حدث أمر لم يكن في الحسبان، ولم يخطر على البال حدوثه، وهو التعرض لهذه الذات المتعالية بالإيذاء، وما هو أكبر من الإيذاء كتقويض الفكرة الفرعونية نفسها وما يقوم ويرتكز عليها، فقد رأى هذا الفرعون وهو في ذروة تألقه، وفي خضم أفراحه بذاته المؤلهة والمتألهة رؤيا منامية أوردتها المصادر الإسلامية على النحو التالي:

«رأى وكأن ناراً محتدمة قد أقبلت من الأرض التي جاء منها رعاياه من بني إسرائيل، وبالتحديد من بيت المقدس، ثم اجتاحت

(١) نص الحديث ورد في لسان العرب مادة حنن.

بيوت القبط، فأحرقتها عن آخرها، وتركت بيوت بني إسرائيل فلم تمسها بضرر»[١].

تحير الوليد بن الريان في أمر هذه النار التي تصطفي وتختار بيوتهم ودورهم، ثم تمر على بيوت ودور تلك الأقلية من بني إسرائيل ممن فضل الإقامة بين ظهرانيهم منذ قرون خلت في عزلة تامة فتستثنيها من الإحراق، حينئذ أيقن بأن الرؤيا بوقائعها المشبعة بمظاهر الخراب هي من قبيل الإلهام الذي كُشف له فيه عن حجب المستقبل كي يتلافى الخطر المحدق بذاته وملكه، فأمر باستدعاء الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين. فلما جاؤوه ملبين قص عليهم ما هاله وأقض مضجعه طالباً تفسيراً شافياً للرؤيا بوقائعها العجيبة.

لم يكن المنجمون والعرافون بعد سماعهم لحلم الفرعون في حاجة لاستنفاد جهدهم وإهدار طاقاتهم في العكوف على مخزون علمهم وتجاربهم للبحث عن تأويل له. إذ هو كاشف عن نفسه بلا غموض، لأن بني إسرائيل ظلوا يتدارسون في كتبهم ما بشرهم به نبيهم يعقوب عليه السلام بقرب ظهور نبي به يسودون العالم وتخضع الأمم والشعوب لشريعته. والبشارة متداولة ومشهورة وليست خافية على أولي العلم، حتى عدوها لشيوعها من أوهام الحالمين. ويوسف بن يعقوب عليه السلام بشرهم بدوره بمبعث نبي يرسله الله لهم من بعده، ومن سبط لاوى تتحقق على يديه نجاتهم وخلاصهم، فقال لهم:

«إنكم لن تزالوا في العذاب حتى يأتي غلام جعد من ولد لاوى بن يعقوب»[٢].

وبناء على ذلك فتفسير الرؤيا غاية في اليسر والسهولة. فالنار

---

(١) قصص الأنبياء ـ ابن كثير ص ٢٨٣، وقصص الأنبياء ـ النيسابوري ص ٢٦٨.

(٢) الكامل في التاريخ جـ (١)، ابن الأثير ص ٣٣.

بمثابة تلك النبوة والتي ستظهر في بني إسرائيل. فتقضي على الفرعون ورعاياه. ليزول بالقضاء عليهم ملكهم ويتلاشى سلطانهم ويتبدل دينهم. ويكون لبني إسرائيل من بعدهم الدولة والغلبة والسيادة والسلطان، فيرتعون في الديار سادة مكرمين ومبجلين، وكون الرؤيا خُص بها الفرعون وحده دون غيره فهذا إيذان بقرب ميلاد النبي المرسل وقرب مبعثه.

ودرءاً للكارثة وشيكة الوقوع، وتلافياً للخطر المحدق بالبلاد والذي اتضحت معالمه الآن، وطفت إرهاصاته على سطح الحياة. فقد أعدت خطة محكمة ودقيقة في تفاصيلها تئد المشروع الإسرائيلي في مهده، وتجتث آمالهم من جذورها. وتمضي الخطة قدماً لتحقق ثلاثة أهداف وفي وقت واحد:

أولها: يذبح كل طفل حديث عهد بالولادة بإراقة دمه، وذلك بقطع الشرايين عند الرقبة. حتى يستوثق تماماً من موت الوليد في الحال.

ثانيها: يسخر الرجال البالغين ومن هم دون البلوغ في مختلف الأشغال وكيفما اتفق، سواء في مشاريع الدولة أو في الأعمال الخاصة للمواطنين، وبغض النظر عن نوعية تلك الأشغال، ومن لا يصلح منهم للسخرة بسبب المرض أو العجز تفرض عليه الجزية.

ثالثها: يستبقي العنصر النسائي أحياء، من هن على قيد الحياة، وأولئك اللائي سيولدن لاحقاً: على أن يستخدمن في جميع الأعمال التي تستخدم فيها النساء عادة، بما فيها أحطها وأقذرها، كأن ينكهن على وجه الاسترقاق.

ثم وضعت الخطة موضع التنفيذ الفوري، وركز المسئولون بوجه أخص على القابلات، فوضع تحت تصرف كل واحدة منهن عدداً من الرجال، واندفع الجميع يدورون على بيوت بني إسرائيل لرصد وإحصاء أسماء الحبالى من نسائهم، وتحديد ميقات ولادتهن. فإذا

حان ميعاد الولادة تتولى القابلات القبطيات إجراءات استخراج الجنين. ولا يسمح لسواهن بها. فإن ولدت المرأة بنتاً تركنها وذهبن. وإن ولدت ذكراً سلم لأولئك الرجال ليذبح. وتترك جثته لأهله.

وفي بعض الأحيان كان يتم قتل الأجنة بطرق تخالف المنصوص عليه في الخطة الأصلية، ولكنها محققة للغرض. فمثلاً كانوا يعرضون الحبالى لشتى صنوف العذاب والإجهاد البدني حتى يسقط الجنين قبل اكتمال نموه، واشتهرت في المصادر الإسلامية طريقة أشد قسوة وأكثر امتهاناً للمرأة رواها ابن مجاهد وتتلخص في الآتي:

«كان المشرفون على ذبح الأطفال يأتون بالقصب فيشق حتى يجعل أمثال الشفار، ثم يصف بعضه إلى بعض، ثم يؤتى بالحبالى من بني إسرائيل فيوقفن عليه، فتخرج أقدامهن حتى إن المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجليها، فتظل تطؤه تتقي به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها»[1].

أما النساء فقد استبقين أحياء رغبة في حياتهن. إذ اعتبرن في عداد الأسيرات، فوظفن وعلى نطاق واسع في الأعمال المنزلية خادمات ومرضعات ومربيات. كما استعين بهن لمشاركة الفلاحات في الحقول وغيرها من الأعمال المخصصة في المجتمع للنساء. وإمعاناً في إذلالهم وتحقيراً وامتهاناً لعزتهم النفسية والقومية. وضرباً لفحولة رجالهن في الصميم فقد كان يعتدي على أعراضهن ولا تجد الواحدة منهن بداً من الأذعان والرضوخ.

وأما الرجال فقد أوكلت إليهم الأعمال الشاقة والصعبة، كحراثة الأرض، وبناء المنازل، واستخراج المعادن من الأعماق السحيقة ونحت الحجارة من الجبال تحت حرارة الصيف وزمهرير الشتاء، كما كلفت طائفة لإنجاز أعمال مخصصة أصلاً للنساء. ومن لا يصلح

---

(١) تاريخ الطبري ص ٢٣٢.

للخدمة العامة أو الخاصة. بسبب العجز أو المرض ضربت عليه الجزية. وهكذا شملتهم السخرة جميعاً بغير استثناء، حتى بلغوا حالة من العذاب تمنوا فيها الموت خلاصاً مما هم فيه.

وكشفت رسالتان من الوثائق القديمة مكتوبتان على ورق البردي عن جزء يسير من تسخير بني إسرائيل في الأعمال الخاصة والعامة. كتب الأولى منها المدعو كويسر كجواب إلى رئيسه بكنفتاح، ومن محتواها يتضح أنه كان المشرف على العمل. جاء فيها:

«استرضاء لسيدي أتممت أمره الذي أنفذه إلي قائلاً أعط الجنود قوتهم واعط العبريو (بنو إسرائيل) الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رع مس سو، والذين وكل أمرهم إلى رئيس الشرطة عنيمان، فأنا أجريت عليهم رزقهم في كل شهر بمقتضى الأوامر السامية التي أنفذها إلى سيدي»[١].

أما الثانية فكانت هي الأخرى رداً من المشرف على العمل كينا إلى رئيسه كيجانا، جاء فيها:

«اطلعت ما أمرني به سيدي قائلاً اعط الجنود أرزاقهم والعبريو أيضاً الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس الذي انصرفت إليه عناية رع مس سو في جنوب منف»[٢].

إن الاستغلال الكامل لطاقات بني إسرائيل امتد ليشمل حتى مشروعات الدولة العملاقة، لاسيما في بناء مدينتين جديدتين، فسيق الألوف لأداء مختلف الأعمال الشاقة المتعلقة بالبناء كإعداد الطين ونقل الحجارة لبناء المعابد والمنشآت الحيوية ورصف الشوارع وشق قنوات المياه. وباكتمال المدينتين سميت الأولى بيتوم أو برتوم (بيت الإله توم) والثانية بر رع مس سو (مدينة الوليد بن الريان)، وهي التي اتخذها الفرعون عاصمة جديدة للدولة، وما لبثت أن اتسعت وتحولت

---

(١)(٢) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ـ دروزة ص ٣١.

إلى مدينة كبيرة، لا زالت خرائبها متناثرة هنا وهناك شمال شرقي الدلتا.

وقد أرخ سفر الخروج لبناء هاتين المدينتين كنموذج حي لما عاناه بني إسرائيل من اضطهاد وقهر وتنكيل فقال:

«فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي فيثوم ورعمسيس»(١).

استمرت الخطة قيد التنفيذ فترة من الزمان، ثم بدأت نتائجها السيئة وانعكاساتها السلبية تظهر على القوى العاملة في الدولة. فمثلاً وكما يرى الزمخشري فقد قتل خلال هذه الفترة عدد من الأطفال يربو عن التسعين ألف طفل(٢).

كما أدى الإنهاك المتعمد لطاقة الرجال إلى تزايد مرعب في معدلات الوفيات، فتدخل أمراء البلاط الفرعوني والرؤساء وكبار رجال الدولة شارحين لرع مس سو الأبعاد المختلفة لآثار الخطة، طالبين منه اتخاذ إجراءات عاجلة لتعديل الخطة أو إلغائها فقالوا له يومئذ:

«إن الموت قد وقع في مشيخة بني إسرائيل نذبح صغارهم ويموت كبارهم. فيوشك أن يقع العمل علينا. فلو أنك كنت تبقى في أولادهم. فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار»(٣).

اقتنع رع مس سو برأي كبراء دولته، فأمر بتخفيف السخرة على بني إسرائيل إلى أدنى معدلاتها. خاصة المنهكة لقوى البدن وحيويته، كما حررت النساء من كافة الأعمال المترتبة على كونهن أسيرات ومسترقات. أما الأطفال فقد عدَّل في الخطة بحيث يذبحوا عاماً ويتركوا عاماً آخر. فولد ـ كما جاء في الروايات الإسلامية ـ هارون

---

(١) سفر الخروج: ١: ١١.

(٢) تفسير الزمخشري جـ (٢) ص ٣٩٣.

(٣) الكامل في التاريخ جـ (١) ابن الأثير ص ١٧١.

عليه السلام عام المسامحة، فترك وشأنه، وولد موسى عليه السلام في عام الذبح، فضاقت به أمه ذرعاً. ولكن الله تعالى أوحى إليها مطمئناً ومبشراً، فقال:

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

إن إعادة النظر في أمر الذبح مع تشدد الفرعون فيه يعني من حيث المبدأ التساهل معهم في النسل، وبمقدار ثابت لا يزيد فيكثروا ولا ينقص فيقلوا، وانعكس ذلك عملياً على التنفيذ، فخفت حدة الرصد والإحصاء إلى حد التراخي، وتباطأ المنفذون في التطبيق إلى حد التجاوز عن القتل في بعض الأحيان. وما جرى مع أم موسى حين أوشكت على الوضوع وضربها الطلق خير شاهد. فعندما دخلت عليها القابلة القبطية الموكل إليها أمر الولادة ضمن دائرة سكنها لم تكن برفقة أحد من الرجال ـ كما تقضي التعليمات، وكانت القابلة نفسها مصاحبة لأم موسى ومخادنة لها. فبادرتها أم موسى بقولها:

ـ «لينفعني حبك اليوم»[2].

فلما خرج موسى للحياة، هالها جمال وجهه، وتسرب حبه إلى قلبها فقالت لها كالمعترفة لها بحقيقة ما تكنه وتخفيه في صدرها:

«ما جئتك إلا لأُشرف على مولودك وأخبر رجال الفرعون. ولكني وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله فاحفظيه»[3].

برت القابلة القبطية بوعدها، فلم تخبر أحداً بميلاد الطفل، لعلمها بتساهل المسئولين وتجاوزهم في كثير من الإجراءات المتعلقة ببني إسرائيل، الشيء الذي جعل مخاوف أم موسى وهواجسها تتجه نحو جيرانها، فيوشون بأمرها، وبذلك تكون قد استقبلت وحي الله

---

(١) سورة القصص: الآية ٧.

(٢)(٣) تفسير الزمخشري ج (٢) ص ٣٩٤.

تعالى عقب الولادة مباشرة لتتصرف على ضوئه آمنة مطمئنة. وبقلب عامر بالغبطة والسرور لما سيؤول إليه حاله مستقبلاً.

ألقمت أم موسى ثديها للطفل فرضع حتى استوفى الغاية من الرضاعة. فسعد في أول عمره بدفء صدر أمه وآنس بقربها. في الوقت الذي أمده اللبن بالقوة والطاقة اللازمة لمجابهة الساعات القليلة القادمة. ثم اتخذت لها صندوقاً من خشب جعلت أبعاده المختلفة طولاً وعرضاً وارتفاعاً مناسبة لحركته مع تيار الماء. وطلته بالقار لسد شقوقه. وبطنته من الداخل بالقطن المحلوج، ثم جعلت له غطاء متعدد الفتحات للتهوية، ووضعت ابنها بداخله، وأحكمت إغلاقه، ولما حل الليل وغطى بظلمته مدينة بر رع مس سو خرجت من منزلها وسارت مسرعة الخطى باتجاه نهر النيل، وعند وصولها للشاطىء رمت بالصندوق في الماء، وبسرعة تضاهي سرعة من يرمي بشيء يخفيه ويريد الخلاص منه.

اندفع الصندوق مع تيار الماء ترفعه الأمواج تارة وتخفضه تارة أخرى، وكان مجرى النيل حيث أُلقي يتفرع منه نهر بني على شاطئيه رع مس سو قصره وقصور زوجاته. فسار عليه الصندوق سابحاً مسافة إلى أن استقر به المقام على الشاطىء وضمن حدود قصر نفرتاري مرنموت أولى زوجات الفرعون. حيث اعتاد ساكنوه النزول للشاطىء دون خشية أو خوف من رقيب للاستحمام أو الاغتسال.

وتصادف في هذه الليلة نزول بعض جواري ووصيفات الملكة نفرتاري كعادتهن للشاطىء طلباً للاسترواح فوقع نظرهن على الصندوق عالقاً بين الأشجار يتمايل يمنة ويسرة مع نسمات الليل وتكسر الأمواج على الشاطىء. فشدت هيئة الصندوق أنظارهن. ولما اقتربن منه أرادت بعضهن فتحه، فيما امتنع البعض الآخر خوفاً من عدم تصديقهن أو اتهامهن إذا ما كان بداخله مال، وأخيراً استقر رأيهن على حمله بما حوى وتسليمه بحالته إلى سيدة القصر، فذلك أحظى لهن عندها.

ولأول مرة تقع عينا الملكة نفرتاري على منظر ندر وقوع عينيها على مثله، صندوق صغير تحمله إحدى الوصيفات وعلى أثرها مجموعة من رفيقاتها، وكلماتهن تتلاحق فرحاً. فشدت بقوة إلى غرابة المنظر، وإلى الصندوق الذي وجد محجوزاً بين النباتات وعلى عتبات قصرها. فأمرت بفتحه في الحال. فإذا بها ترى صبي حديث عهد بالولادة يتراوح عمره بين اليوم والاثنين مستلقي على ظهره ويمص إبهامه. ووجهه يشرق جمالاً وحسناً. وفي عينيه ملاحة تدفع بمن يراه إلى الرأفة به والميل نحوه، عندئذ ألقى الله تعالى محبته في قلبها وغرزها في فؤادها، بحيث شعرت في تلك اللحظات بأنها محبة خارقة لمألوف المحبة. ولعدم أسباب داعية وموجبة لها كطول الألفة والمؤانسة والرغبة في الانتفاع وغيرها من مولدات الحب.

وما لبثت هذه المحبة الخارقة لمألوف الحب وعوائده أن جرفتها إلى محبة أخرى أكثر عمقاً وأشد ثباتاً وتمكناً هي محبة الأم الرؤوم والوالدة الحنون لوليدها وفلذة كبدها فملأت عليها أقطار النفس بحيث لم تعد قادرة على فراقه والبعد عنه، ومن ذات النبع الثر من الحب والمحبة أطلقت عليه هكذا ارتجالاً اسم (موس ى)، دون أن تضع في حسبانها وجوده ملقى بين الماء والشجر، ومعرضاً للهلاك بين الفينة والأخرى.

والاسم بلغة نفرتاري مكون من مقطعين موس أو مس - وهي كما عرفنا - بمعنى وليد أو طفل أو ابن، والياء هي ياء النسبة، تماماً كما في العربية، وهي معروفة ومتداولة في أسمائهم أكثرها شيوعاً سيتي المنسوب إلى الإله سيت، وحورى المنسوب إلى الإله حور، وأمنى المنسوب إلى الإله أمون، فالمقطعين إذن بمعنى ابني أو وليدي أو طفلي، فكأنها أرادت التأكيد على أنه يحل في قلبها محل الابن في قلب أمه، وبالنسبة والإضافة أنه ملك لها دون نساء العالمين. ومنذ تلك اللحظة المفعمة بمشاعر الحب والحنان حمل الطفل الاسم، وبه أنزل الله تعالى قرآناً يتلى إلى يوم القيامة.



الملكة نفرتاري زوجة رع مس سو وأم موسى بالتبني

وبطبيعة الحال فالطفل الذي يجازف أبواه برميه وإلقائه في النيل قد قصدا بذلك تخليصه من القتل، وبالتالي فمسألة قتله مسألة وقت ليس إلا، ولكن تمسك نفرتاري به ووجوده داخل حريم الفرعون جعل المشرفين على الذبح يتريثون قليلاً تاركين للفرعون نفسه البت في شأنه، وبالفعل فقد أراد الفرعون التخلص منه ذبحاً. فتدخلت زوجه وشرعت تدافع عن ابنها وتحببه إليه، فقالت له كما حكى الله تعالى عنها:

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1].

قصدت نفرتاري بقولها: لا تقتلوه. أن تسند أمر القتل للجميع كسياسة عامة تنفذها أجهزة الدولة المختلفة لا الفرعون وحده، وجعلت حظه من الذبح كحظ الواحد بلا تخصيص موهمة إياها بأن ذلك لا

(١) سورة القصص: الآية ٩.

ينبغي أن يكون عن رأيه أو فعله. تسهيلاً عليه وتهويناً له ليستثنى موسى من جملة من تقرر قتلهم. فإذا وافق فالطفل سيكون مصدر غبطتهما، وبه تسكن عيناهما، فلا يطمعان في غيره، ويرجى بانضمامه إليهما وتربيته بينهما النفع والفائدة التي ترجى من كل طفل تُبني وأُحسن إليه صغيراً.

غير أن رع مس سو بتكبره المعهود وتعاليه السافر رد عليها رداً وهب لها الطفل دون التصريح بهبته، استصغاراً للأمر وتأففاً منه فقال: «قرة عين لك وأما لي فلا»(١).

وحين سمعت أم موسى بنجاة ابنها وتبني الفرعون وزوجه له لم تتمالك نفسها من شدة الفرح، حتى أوشكت مدفوعة بعاطفة الأمومة للاعتراف والتصريح بأن من حظي بكل هذا الاهتمام، ونال رعاية وعناية خليقة وجديرة بأبناء الملوك والأمراء هو ابنها، لولا أن تداركتها رحمة الله وبره، فقوي قلبها وتشجعت على الثبات. يقول الله تعالى واصفاً حالتها تلك:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾(٢).

وكما هي العادة المتبعة في تنشئة أطفال البلاط الفرعوني بعثت نفرتاري تطلب مرضعة تتحلى بمواصفات مرضعات الأمراء، ولكن موسى امتنع امتناعاً غريباً عن التقام ثدي أياً منهن، كأن هناك مانعاً يمنعه وسبباً يحول بينه وبين الرضاعة، فحارت أمه بالتبني في حاله، وتحايلت على تغذيته بكل ممكن فرفض، وأهمها أمره واقض مضجعها حتى أشفقت عليه من الموت جوعاً، ثم سعت للبحث عن أي مرضع يقبل ثديها ولو كانت من العوام، وفشا بين الناس خبر الطفل الذي

(١) تفسير الزمخشري ج (٢)، ص ٣٩٤.

(٢) سورة القصص: الآية ١٠.

انتشله آل فرعون من النيل وأضرب عن الرضاعة إضراباً يكاد يورده موارد الهلاك. فتوالت عليه المرضعات واحدة في أثر الأخرى حتى عُرض على عدد كبير منهن في فترة وجيزة. ولما تنامى إلى مسامع أم موسى بغشيان المراضع على قصر نفرتاري دون طائل قالت لأخته وابنتها:

﴿قُصِّيهِ﴾[1].

والعبارة على إيجازها دقيقة إذ تقيد أخته بتتبع أخباره تتبعاً استقصائياً دون أن يلحظها أحد، وبالفعل دخلت الشابة قصر الملكة كسائر المرضعات اللائي يعرضن خدماتهن. وكانت ما بين الفينة والأخرى تسترق نظرات مزورة متجانفة ومخادعة على شقيقها، وبطريقة توحي بقلة الاكتراث وعدم الاهتمام، ولا تدل على أنها جاءت للتعرف عليه أو تقصي حالته، وفي غمرة هذه المواقف المصطنعة، وما لمسته بنفسها من وجدهم عليه وتكالبهم على معالجة حالته قالت لهم كالمتسائلة:

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾[2].

تعجب الحاضرون من تساؤلها المفاجىء، ومن جمعها بين شيئين الكفالة والنصح فشكوا في أمرها. وذلك لأن الكفالة هي التعهد بحفظ الطفل ورعايته. وذلك سهل وميسور تقوم به كل مرضعة. أما النصح فهو إخلاص العمل وخلوه من التقصير والإفساد، وتحققه بالفعل صعب الحدوث لتعلقه بمعان قلبية ووجدانية، فقولها إذن يوحي على أقل تقدير بمعرفتها لأهل الطفل، فهم وحدهم الذين يشفقون عليه شفقة لا يبتغون وراءها أجراً، ويخلصون له إخلاصاً لا يريدون من ورائه نفعاً أو فائدة. فأغلظوا لها في القول لتدلهم على أهله. ولكنها

---

(١) سورة القصص: الآية ١١.

(٢) سورة القصص: الآية ١٢.

أزالت شكوكهم وتخلصت من اتهامهم بلباقة ولطف فقالت لهم:

«إنما أردت أنهم للملك ناصحون وعلى ابنه مشفقون، ورغبتهم فقط في قضاء حاجته، ورجاء منفعته، ونوال رضاه»[1].

وما أن أذنوا لها باستدعاء هذه المرضع حتى انطلقت فجاءت بأمها وموسى بين يدي نفرتاري تهدده شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاعة، فلما شم ريح أمه استأنس وهدأت نفسه وكف عن البكاء، والتقم ثديها وأخذ يمتصه، ففرح الجميع فرحاً مشوباً بالدهشة والاستغراب.

ويروي الزمخشري[2] أن رع مس سو كان حاضراً يراقب عن كثب وبعين حذرة ما يجري أمامه، فبادر أم موسى بالسؤال:

«من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك».

فردت عليه قائلة:

«إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أكاد أوتى بصبي إلا ارتضع مني».

وهكذا وبعد غيبة قصيرة عاد موسى إلى حضن أمه، فسعدت به. وتحقق وعد الله تعالى لها. يقول تعالى معقباً على خاتمة الأحداث والوقائع الماضية.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[3].

ترعرع موسى عليه السلام في كنف رع مس سو، وتربى بين أولاده وأحفاده. يركب ما يركبون ويلبس ما يلبسون، وفي الفترة ما

---

(١) تفسير الزمخشري ج (٢) ص ٣٩٦.

(٢) تفسير الزمخشري ج (٢) ص ٣٩٦.

(٣) سورة القصص: الآية ١٣.

بين تبنيه وبين بلوغه المبلغ الذي لا يزاد عليه من كمال القوة والغاية في الإدراك، خفت العقوبات المفروضة على أبناء جلدته، وألقيت تدريجياً أعمال السخرة وذبح الأطفال، ولما أكمل الثلاثين من عمره أتاه الله تعالى ما يؤتي النبيين والمرسلين من الحكمة والعلم والفهم عنه. لتبدأ منها مرحلة جديدة في علاقته بالفرعون والفراعنة.

ففي إحدى الزيارات التي اعتاد فيها مرافقة رع مس سو إلى مدينة منف، وكانت تسمى يومئذ (مصر القديمة) تخلف موسى عن ركبه لعارض من عوارض الحياة العادية. فركب منفرداً مقتفياً أثره وحريصاً على اللحاق به، ولدى وصوله مشارف منف كان النهار قد انتصف واتجهت الشمس في الانحدار نحو الغروب. وهو الوقت الذي تعود فيه أهالي المدينة على الاستراحة، فخلت الشوارع من المارة وقل التحفظ والتيقظ.

وأثناء سيره شاقاً طريقه نحو مقر الفرعون تصادف وجود رجلان يتضاربان ويتهاوشان أحدهما إسرائيلي والآخر قبطي، وكان محور النزاع أن القبطي أراد تسخير الإسرائيلي كي يحمل عنه حطباً أثقل كاهله. فأبى الإسرائيلي مما أثار حفيظة القبطي فلجأ إلى الخشونة معه لتحقيق مراده، فحدث بينهما ما رآه موسى من تضارب وتشابك.

ولما رأى الإسرائيلي موسى قادماً نحوهما عرفه على الفور فاستغاث به ليهب إلى نجدته. وليدفع عنه مهانة التسخير، فاندفع موسى نحو القبطي ثائراً وغاضباً لعلمه بأنه هو المعتدي، فضربه بجماع كفه على صدره ضربة شائعة بين الناس في زمانه، وتستخدم في زجر المعتدي ورد الجاني، ولكنها لا تفضي إلى الموت بأي حال من الأحوال، ووسط دهشة موسى والإسرائيلي ترنح القبطي وتراجع إلى الخلف ثم خر صريعاً بلا حراك، فأيقن موسى أنه ارتكب ذنباً ووقع في خطأ هو بلا شك من عمل الشيطان، فندم وتأسف على ما اقترفت يداه.

وفي صبيحة اليوم التالي خرج موسى إلى شوارع المدينة يتسقط أخبار حادثة البارحة، ويرصد ما يقال ويشاع حولها على ألسنة الناس. ومن خلال تتبعه وترصده تبين له أن وقوع القتل في وقت خفت فيه حدة الحركة قد جعل المشرفون على الأمن يجهلون أسباب ودوافع القتل، الشيء الذي جعل الغموض يحيط بالحادثة من كل جانب، ورغم هذا ظل موسى على حذره وتوجسه من أن تدهمه قوات الشرطة بين الفينة والأخرى، ودام على هذه الحالة من الخوف والترقب يجوب شوارع المدينة مرهف الآذان لسماع أي خبر يمت للحادث بصلة.

وبينما موسى عليه السلام يجوب شوارع منف جيئة وذهاباً إذا بإسرائيلي الأمس يتنازع مع قبطي آخر ويصرخ ويبالغ في الصراخ مستغيثاً بموسى كي يهرع لتخليصه من غريمه، فاغتاظ من هذا الرجل شكس الطباع ولا يكاد يفتر عن المشادة، وقبيل تدخله بينهما عنف الإسرائيلي بلهجة غاضبة على كثرة مشاكله وكثرة شره، كما لامه على سوء طباعه قائلاً:

﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

فالرجل كما وصفه موسى ينقاد في معظم تصرفاته للهوى بلا تبصر لعواقب الأمور، يقاتل بالأمس رجلاً ويقاتل اليوم آخر. بل يشاد من لا يقدر عليه. ولا يتحمل قوة خصمه فيبادر بالاستعانة والاستنصار بغيره. يخاصم قوم فرعون مع كثرتهم وعداوتهم وبغضهم لبني جنسه، ثم يسرع بلا حياء طالباً العون والنصرة.

ومع كل هذا اندفع موسى نحو القبطي عاقداً العزم على التفريق بينهما، وردع الظالم ووقفه عند حده، فقد ارتكب بالأمس القريب جرماً كان فيه ظالماً لنفسه، واستغفر ربه فتاب عليه، فأقسم بعدها ألا يكون معيناً لأحد من الظالمين.

---

(١) سورة القصص: الآية ١٨.

فلما أقبل نحوه نظر إليه الإسرائيلي بعد تعنيفه إياه، فإذا به يشتعل غضباً كغضبه بالأمس، فتوهم أنه المقصود لا غريمه ويروم قتله، فانزعج وشل الخوف مقدرته في السيطرة على نفسه والتحكم في تصرفاته، وغدا كل همه منصب في الدفاع عن نفسه وبأي ثمن فصاح في موسى قائلاً:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[1].

وبهذا التهور والتسرع انكشف المستور، واتضح للقبطي أن موسى قد ارتكب متعمداً جريمة قتل بقيت طي الكتمان وها هو واحد من أبناء قومه يفضحه، فانسل من بينهما بهدوء وسط ذهول الإسرائيلي وخيبة أمل موسى، وانطلق جرياً لإبلاغ ما سمعه لأصحاب الشأن.

وفي محل إقامته المؤقت بأطراف منف بعيداً عن ضوضاء المدينة عرف رع مس سو بالجرم الفادح الذي ارتكبه ابنه بالتبني، وهو من الجرائم التي لا يتسامح فيها مهما كانت منزلة الفاعل، ولأجل ذلك وافق فوراً على ما اتفقوا عليه من ضرورة الاقتصاص من موسى بغير إبطاء.

وقبل أن توضع المؤامرة قيد التنفيذ، ويخرج المنفذون من حضرة الفرعون لأداء ما أوكل إليهم، علم بالمؤامرة رجل ممن كانت تربطه بموسى صلة مودة وعلاقة حميمة تجعله حريصاً على حياته ومشفقاً عليه من المصير الذي ينتظره، فأسرع سالكاً طريقاً مقتصراً يقوده مباشرة لمقر موسى فأدركه قبلهم، عندها قال له ناصحاً ومحذراً:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[2].

---

(١) سورة القصص: الآية ١٩.

(٢) سورة القصص: الآية ٢٠.

وخرج موسى على الحالة التي كان عليها. خائفاً يترقب. وبلغ وقتها أشده واستوى بنية وعلماً وحكمة، ليختم بخروجه المفاجىء مرحلة طويلة قضاها في كنف رع مس سو الثاني أعتى الفراعنة، وأكثرهم علواً في الأرض، ابناً له بالتبني. وبعد عشرة أعوام كاملة قضاها في بلاد مدين، عاد ليجد شقيقه بالتبني مرن بتاح ابن رع مس سو فرعوناً جديداً خلفاً لوالده وليفتح بعودته المفاجئة صفحة جديدة لمرحلة ثانية من عمره هي على خلاف ما كانت عليه، وليقترن اسميهما معاً اقتراناً يبقى إلى آخر أيام الزمان.

مرن بتاح (مصعب بن الوليد بن الريان): فرعون موسى:

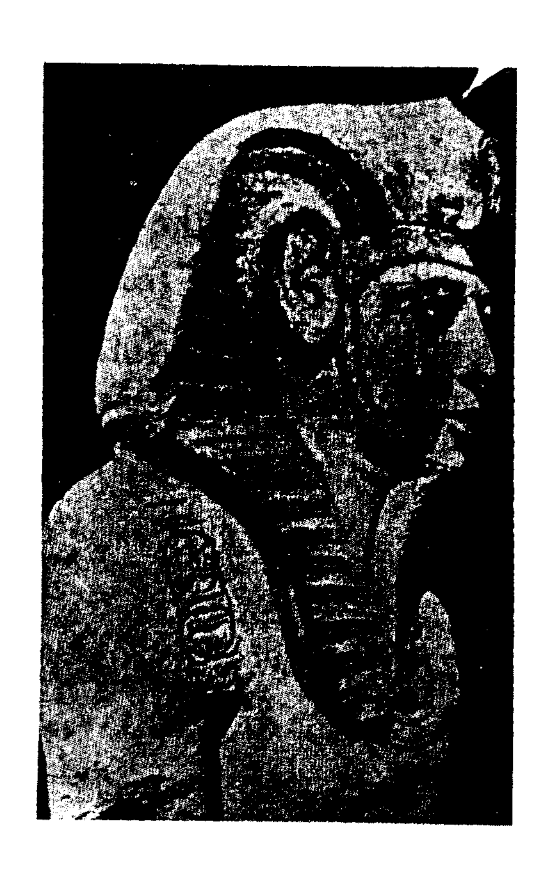
إن شهرة مرن بتاح أو مصعب بن الوليد بن الريان بهذا الاسم، وارتباط هذه الشهرة أصلاً بظهور موسى عليه السلام في عصره نبياً ورسولاً. وتطابق اسمه في اللفظ والمعنى مع الروايات الغربية جعل المؤرخون لا يعانون في تحديد اسمه وتعيينه من نفس الخلط الذي اكتنف اسم والده، وذلك كاف وحده ليحظى الاسم كما هو عليه من كتابات مرن بتاح الشخصية وآثاره، أو في ترجمته العربية بقدر من الثقة والقبول تغني عن كل حديث.

فكلمة مر من الكلمات ذات المعاني المتعددة، وترد كثيراً في النصوص القديمة بمعنى عين وحوض وحية وصندوق ومقذاف وشجر السنط وقدر اللبن وقيد وأرض وحب ويحب وتألم. ومنعاً للإلتباس بين دلالات الكلمة توضع في آخر كل كلمة إشارة متممة لها تميزها عن غيرها في المعنى. فمثلاً إذا وضع بعدها مخصص عين فتعني العين، أو مخصص الماء فتعني الحوض، أو مخصص صورة رجل واضع يده في فمه دليل الحب، فتعني الحب، أو مخصص عصفور الشر فتعني التألم. أو ما يفيد معنى القسوة والشدة. وعلى المخصص الأخير دارت معاني اسم فرعون موسى، وعلى أساسها ترجم الاسم إلى العربية.

وبناء عليه فقد أطلق عليه في الروايات الإسلامية اسم مصعب بن الوليد، وهو مطابق إلى حد كبير في الدلالة والمعنى مع لغته الأصلية. وذلك لأن كلمة مر ترد في اللغات العروبية القديمة بمعان عدة تفيد الشدة والقوة والفحولة والصلابة، وكل ما هو نقيض للسهولة واللين والضعف، وترد الكلمة في عربية القرآن الكريم بمعنى القوي والشديد والصعب، وعلى ذلك يكون معنى مرن بتاح شدة أو صلابة أو قوة الإله بتاح، والنون في قواعد اللغة الهيروغليفية هي نون الإضافة، ومن هنا تطابق اسمه مع الروايات الإسلامية، إذ أن اسم مصعب أو الصعب فيه المعاني الدالة على القوة والشدة والفحولة والسيادة وغيرها من المعاني التي أسبغها الفراعنة على أنفسهم وعلى أولادهم إجلالاً وتقديراً.

أما الروايات الغربية فقد اقتصرت على ترجمة الاسم إلى محبوب الإله بتاح، وهي ترجمة صحيحة وسليمة إذا ما نظرنا إلى كلمة رام ويروم على أنها مقلوب كلمة مر في اللغات العروبية القديمة والتي ترد بمعنى محبوب وحب ومحب وحبيب. كما تعني في الوَقت نفسه قوي ومسيطر وسيد وغيرها، واقتصار الغربيون على هذه الترجمة وحدها مرده إلى قراءتهم كلمة مر في اسمه مقرونة بمخصصها وهو صورة رجل يضع يده في فمه كدلالة وإشارة إلى الحب ومشتقاته، في حين اعتمد الإسلاميون وعلى نحو مباشر على اللغة المنطوقة ومنها فهموا الكلمة في دلالتها عن معاني الشدة والقوة والصلابة. فقادتهم إلى معنى الاسم بلا وسيط أو مخصص.

يحتل مصعب بن الوليد الرقم الثالث عشر من القائمة الطويلة لأبناء رع مس سو، وقد اختاره والده في العام الخامس والخمسين من حكمه ولياً للعهد ووارثاً شرعياً للعرش الفرعوني خلفاً لأخيه المتوفي (خع مواست)، والذي كان ولياً للعهد فترة طويلة. ولذا حمل كل الألقاب التي كان يحملها شقيقه مثل لقب الكاهن الأعظم للإله بتاح، كما شغل أيضاً كل الوظائف العليا في البلاط الفرعوني مثل رئيس الأرضين، وكاتب الفرعون، والقائد الأعظم للجيش.



مرن بتاح: مصعب بن الوليد بن الريان فرعون موسى

وقد نقش هو بنفسه وعلى جعران مصنوع من حجر الاستيتيت ومغطى بطلاء مائل للخضرة المركز الذي كان يتبوأه في البلاد جاء فيه:

«الأمير النائب عن جب إله الأرض [أي والده رع مس سو]، والنطفة الإلهية [أي الابن الإلهي] الذي أنجبه الثور القوي ومن في يده تجمع السهل والحزن [البلاد الأجنبية] واليقظ القلب لتقديم العدالة لآبائه وأسلافه وللآلهة كلهم، والوحيد الذي لا مثيل له، وكل البلاد الأجنبية تحت سلطانه، الكاتب الملكي، وقائد الجيش الأعلى، والابن الملكي مرن بتاح المخلد أبداً»[1].

ولما توفي رع مس سو عام **١٢٢٤** ق. م وتوج مرن بتاح فرعوناً لم يكن وقتها شاباً صغير السن، بل كان شيخاً يناهز الستين من عمره، وتم الاحتفال بالتنصيب في عاصمة البلاد بر رع مس سو، ووفقاً للعرف المتبع، وطبقاً لمراسيم ترى في سلفه إلهاً اختفى مع الآلهة في السماء، وفي خلفه إلهاً جديد تألق وأشرق على الناس والدنيا حامياً ونصيراً به تستقيم أمورهم، وبوجوده يحتفظ الكون بتوازنه وانسجامه.

وكالعادة بادر الشعراء إلى صياغة تلك المعاني في قالب غنائي يسهل على الناس حفظه وترديده جاء في إحداها:

«افرحي أيتها الأرض قاطبة، قد جاء زمن الخير، فقد أقيم سيد على كل الممالك وأتى الشهود، وهو الذي يحكم ملايين السنين، عظيماً في ملكه مثل حور نبن رع محبوب أمون الذي يفيض على مصر بالأعياد ابن رع مرن بتاع منشرح بالصدق، إيه يا أيها الأتقياء تعالوا وشاهدوا، قد قضى الصدق على الكذب وخر المذنبون على وجوههم وولى الطامعون أدبارهم، والماء ثابت لا ينقص، والنيل يحمل فيضاناً

(١) مصر القديمة ج (٦) سليم حسن ص ٨.

عظيماً، والأيام أصبحت طويلة، والليالي لها ساعات معدودات والشهور تأتي في مواقيتها، والآلهة منشرحون سعداء القلوب، والحياة تمر في ضحك وعجب»[1].

إن الصورة الوصفية لملامح مرن بتاح قد استقيت برمتها من مومياه المحفوظة حالياً بالمتحف المصري في القاهرة، والتي بقيت إلى حد ما سليمة، يتراءى من خلالها محياه وهو حي. فمنظر وجهه العام يشبه في قسماته وبصورة تكاد تكون ناطقة وجه والده رع مس سو، ولكن شكل الجمجمة وأبعاد الجبهة تتفق إلى حد بعيد مع جده سيتي الأول، وطوله يبلغ حوالي أربعة عشرة ومائة مليمتر ومتر، ممتلىء الجسم إلى حد البدانة، أصلع الرأس تقريباً لم يبق له بعد عمر طويل في رأسه إلا إطار ضيق من الشعرات البيض على القفا والصدغين، وبعض شعرات سود مبعثرة على شفته العليا، وشعرات قصرت على الخدين والذقن.

قضى مرن بتاح في السلطة قرابة عشرة أعوام، منها ثمانية أعوام تعتبر وبكل المقاييس هادئة ومستقرة، صحيح أنه قد تخللتها بعض الأحداث الكبرى، ولكنها ليست بالقدر الذي يشكل تهديداً لأمن الدولة والمجتمع أو شخص الفرعون. والفرعون بحكم سنه لم يكن ميالاً للأعمال الضخمة والتي تتطلب شباباً فتياً، وآمالاً عريضة في حياة طويلة ممتدة، فخلد إلى ما يشبه الانعزال عن الحياة بذخمها وتيارها الحار المتدفق، فتركز جل نشاطه السياسي والاجتماعي في المحافظة على ما ورثه، وهو ـ كما يعتقد ـ حق طبيعي للأجيال القادمة.

وفي السنتين الأخيرتين من حكمه طرأ على تيار حياته الهادىء الرصين شيء أقضى مضجعه، وعكر عليه صفو حياته. فقد عاد للبلاد وعلى نحو مفاجىء ابنهم بالتبني موسى، يحمل صفة جديدة هي صفة

(١) مصر القديمة ج (٦) سليم حسن ص ١١.

النبوة، ويسعى إلى تحقيق هدف محدد المعالم هو إخراج بني إسرائيل من بلادهم، فأعاد إلى الذاكرة كل المهددات السابقة للذات الفرعونية والوجود الفرعوني، بل وما أقيمت على قواعده ومن أجله الفكرة الفرعونية ككل، وتفصيل هذا سيأتي في حينه من الكتاب.

الفصل الثاني
مؤمن آل فرعون



من آل فرعون:

إن الفكرة الفرعونية كما بينا من قبل تمثل في حد ذاتها نقطة محورية يدور عليها بناء الحكم والدولة والمجتمع، وحتى تظل الفكرة حية متقدة لا تفنى ولا تنزوي فلا بد لها من روافد تغذيها وتمدها بأسباب الوجود، وتكفل لها دوام الاستمرار، بحيث لا يشكل غياب الفرعون أي تهديد لنظام الحكم وبناء الدولة، ولأجل هذا عد كل من ينحدر من الذات الفرعونية، وتجري في عروقه دماء الفراعنة حاملاً للفكرة، وامتداداً طبيعياً لها، يقوم مقامه إذا غاب، ويليه في الرتبة والمنزلة في حياته وبعد مماته.

ويشكل هؤلاء في مجموعهم دعائم الفكرة وسندها وأعمدتها إلى حد غدا فيه وجود الفكرة نفسه، وثباتها على أداء وظائفها قائم بهم ومرهون بوجودهم، بحيث شبهوا بعيدان الخيمة وأعمدتها، بها ترتفع فوق الأرض، وعليها معتمدها وقيامها.

ولعل تلك الخصوصية للذات الفرعونية هي التي جعلتهم ينأوون عن سائر الناس ويتمازون عليهم نسباً وشرفاً وفضلاً، فأطلق عليهم من دونهم في المنزلة والرتبة (آل فرعون) تعظيماً لشأنهم وإعلاءً لقدرهم، وبالاسم نفسه، وهو جمع في المعنى فرد في اللفظ بكل ما يتضمنه

عن الذات الفرعونية المؤلهة والمتأهلة ذكرهم الله تعالى في القرآن، وبه خاطبهم، وبه عرفهم للناس وفي مواضع كثيرة نذكر منها قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾[2].

وقوله:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[3].

أما في الجانب السياسي البحت فيحمل كل فرد منهم لقب ابن الفرعون [سانيسو] وبنت الفرعون (سات نيسو) بغض النظر عن درجة قربه من الفرعون الحاكم، وهو يعادل لقب أمير وأميرة، بلا تمييز أو تفريق فيما بينهم، اللهم إلا من يشغل منصباً دستورياً في الدولة مثل ولي العهد بوصفه خليفة الفرعون ونائبه على العرش، أو من يشغل منصباً وزارياً أو استشارياً يجعل صلته بالفرعون مباشرة لا تحدها تقاليد البلاط، ويعطيه الحق في مقاسمته السلطة والرأي والحكم، وهو ما لا يتوفر لدى سائر الأمراء.

فإذا كانت تلك هي السمات المميزة لآل فرعون، فإن الرجل الذي وصفه الله تعالى في سورة غافر بقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾[4] هو تلقائياً من خاصة الفرعون وأقاربه، ويحمل أسوة بغيره لقب ابن الفرعون، وما قصه تعالى بعد ذلك ينبىء بما كان يشغله من منصب دستوري في الدولة يخول له التدخل المباشر بالرأي والمشورة في شئون الحكم وأزمات الدولة السياسية ومشكلاتها. ومن منطلق تلك الحقبة اتفقت آراء المفسرين اتفاقاً يشبه الإجماع بأن

(١) سورة غافر: الآية ٤٦.

(٢) سورة القمر: الآية ٤١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٠.

(٤) سورة غافر: الآية ٢٨.

الرجل هو ابن عم الفرعون، أي ابن عم مصعب بن الوليد فرعون موسى[١]. وانفرد الرازي وحده ببيان منصبه الدستوري فقال: «وكان يجري مجرى ولي العهد ومجرى صاحب الشرطة»[٢] أي كان له الملك والحكم من بعد الفرعون.

إن إحلال الرواية الإسلامية على ما هي عليه وتفريغها على الواقع التاريخي أمر ميسور، وتحديد شخوصها وتعيين أسماءهم في متناول اليد. فبحكم بنوة العمومة بين الرجل المؤمن ومصعب بن الوليد، ينظر إلى رع مس سو ووالد الرجل المؤمن كإخوان أشقاء، والدهما الفرعون سيتي الأول وأمهما الملكة موت تويا، مما يعني بداهة أن شقيق رع مس سو هو عم لمصعب بن الوليد، وبالتالي فالرجل المؤمن ابن عم له.

تلك هي صلة القرابة والنسب على الأقل من الناحية النظرية، أما انطباقها على الواقع التاريخي، ومدى أخبارها بالصدق عن الحقيقة فمحل شك كبير يحتم علينا إعادة النظر فيها كي نصل إلى الحق أو ما يقرب للحق في العلاقة بينهما.

والنقطة المحورية التي يدور حولها الشك تنحصر في أن سيتي الأول لم يعرف له ابن على وجه اليقين سوى رع مس سو. وما نسب إليه كابن هو من قبيل التخمين الذي لا تدعمه شواهد الواقع ولا تعضده الوثائق المتوفرة الآن بين الأيدي. فعلى سبيل المثال عندما عاد سيتي الأول من أحد معاركه التي جرت في بلاد الشاسو مظفراً صور هذا النصر المبين على أعدائه بصورة خلابة، يشاهد فيها الفرعون واقفاً على عربته الحربية وهو يقود جواديه وقابضاً على الأغلال التي كبل بها الأسرى. وقد ساق منهم ثلاثة أرتال ورتل رابع يتعثر أفراده في سيرهم

---

(١) على سبيل المثال انظر تفسير الزمخشري ج (٤/ ٣٩٩)، وتفسير ابن كثير ج (٤) ص ٣١٨.

(٢) تفسير الرازي ج (١٢) ص ٥٨.

خلف عربته، وصور على يمينه أمير يحمل قوساً وكتب فوقه مباشرة.

«مصاحبة الأمير الوراثي العظيم الدعاء وكاتب الفرعون الحقيقي ومحبوبه، وابن الملك من صلبه ومحبوبه للفرعون في سيره في بلاد رتنو»[١].

ويظن بعض المؤرخين أن هذا الأمير ربما كان أخاً أكبراً لرع مس سو، وبكر أبناء سيتي الأول، ووارث عرشه وولي عهده، مات قبل بلوغه السن التي تؤهله لخلافة والده، وصورته لا زالت منقوشة على جدران معبد الكرنك مع ألقابه وصفاته، أما اسمه فقد أزيل من على الصورة. فلا يعرف عنه شيء. اللهم إلا إشارات باهتة ومبتورة ركب منها اسم (أمون نفر نبف) دون تأكيد ممن صاغوه بأدلة وبراهين تقوى نسبته لسيتي الأول. ومن هنا كان الشك في شخصه والحيرة في تحديد اسمه.

ومما يزيد الأمر غموضاً وإبهاماً، ويلقى بظلال كثيفة من الشك والاضطراب العثور على تابوتين في مكانين متباعدين أحدهما في قعر حفرة عميقة لم تكن استعلمت من قبل في الدفن بمدينة هابو، والثاني في بلدة غراب، وكلاهما يحملان اسم رع مس سو أو بارع مس سو، ومكتوب عليهما لقب ابن الملك ومحبوب أمون وسيد أهل عين شمس وتابوت مدينة هابو فارغ في حين يحتوي تابوت بلدة غراب على هيكل عظمي لرجل دون الثلاثين من عمره، أحدب الظهر ويبدو من هيئته أنه كان قعيداً أو كسيحاً ثقلت رجله أو رجلاه في المشي وربما امتد الثقل إلى اليدين، فتعطل عن الحركة تماماً.

ويحتمل أو لا يحتمل أن هذا الأمير القعيد الأحدب هو بكر أبناء سيتي الأول، بل ربما كان هو بعينه الذي صحبه في حملاته العسكرية وصور معه على جدران الكرنك، ولكن كلها احتمالات بعيدة تفتقر

---

(١) مصر القديمة ج (٦) سليم حسن ص ٤٢.

إلى الحجج البينة والبراهين القاطعة، والنقوش التي يعتمد في الترجيح أشارت فقط إلى ألقابه وأهملت تحديد نسبه وصلته بسيتي الأول. كما أن توزيع التابوتين في مكانين متباعدين يعد بالفعل من الأمور الداعية للحيرة والشك. وتلقى بظلال قاتمة على العلاقة بينه وبين سيتي الأول.

وبغض النظر عن كل هذا فمن المحتمل وتأسيساً على العادة التي درج عليها الفراعنة في إرسال أبنائهم إلى منف وغيرها للإشراف على شؤون الجيش والإنابة عنهم في تدبير الأقاليم، أن يكون سيتي الأول قد أرسله في مهمة من تلك المهمات حيث أدركته المنية بعيداً عن العاصمة، فقبر حيث قبض، وفي فترة لاحقة على الوفاة واتباعاً لسنة الفراعنة في دفن أبنائهم نقلت رفاته في تابوت جديد إلى مسقط رأسه ليرقد في القبر الذي أُعد خصيصاً له.

ومهما يكن من أمر فإن محو اسم هذا الأمير عن قصد، والطريقة التي دفن بها تجعل الباحث يتكهن بوجود نية مبيتة من وراء هذين العملين، وذلك حتى يبقى اسمه ومقره الأخير سراً مستتراً مما يؤكد وعلى نحو ما صحة وجود ابن بكر لسيتي الأول وأخ شقيق لرع مس سو، قد تعمد تجريده من حقه في وراثة العرش، ومحو شخصيته من الوجود، إما بسبب مرض أقعده عن الحركة أو ظهور تشوهات خلقية حولته إلى مسخ تشمئز منه النفوس، وتنفر منه القلوب، ولا مصلحة لأحد في هذا العمل سوى سيتي الأول. ولكن مسوغاته ودوافعه للإقدام عليه، فلا يمكن الاهتداء إليها إلا عن طريق الظن والتخمين.

وفي مقابل ذلك الغموض الذي أحاط بأكبر أبناء سيتي الأول نجد وضوحاً قوياً في تحديد وتعيين أبنائه الآخرين رع مس سو وأخته حنت مي رع. اللذان ظهرا مع والديهما كثيراً في اللوحات والتماثيل التي أُعدت في حياته، منها على سبيل المثال لا الحصر: صُوِّر رع

مس سو في عدة مناظر في معبد والده بالعرابة بوصفه ولي العهد بصورة أصغر من صورة والده. وفي منظر يُرى وهو يحمل الطغرائيين اللذين يحتويان على اسمه وألقابه في مقدمة ردائه، وكتب لقبه بالصيغة القصيرة: وسر ماعت رع.

وكذلك الأمر مع ابنة سيتي الأول حنت مي رع فقد ظهرت في تمثال مع والدتها تويا، وأيضاً في مجموعة رع مس سو التي عثر عليها في أبي كبير، وهي - كما هو معروف - تزوجت من شقيقها الوحيد رع مس سو، وكانت تحمل الألقاب: بنت الملك وزوج الملك وبنت الملك من صلبه، وزوج الفرعون العظيمة[١]. وعندما توفيت دفنت كما تدفن زوجات الفراعنة.

وهناك حقيقة تاريخية تعد اليوم من البديهيات قد تدحض من الأساس فكرة وجود ابن بكر لسيتي الأول غير رع مس سو، وهي اشتراك رع مس سو في شؤون والده الفعلية منذ سن مبكرة، حيث أُعلن وهو في العاشرة من عمره ولياً للعهد. وبعد فترة قصيرة توج شريكاً لوالده في الحكم. فأتاح له بذلك مجالاً واسعاً لتكليفه ببعض المهام بقصد تدريبه على الإدارة ليكتسب الخبرة اللازمة التي تؤهله للحكم عن دراية كافية ومعرفة عميقة، منها على سبيل المثال صورة له في أحد المناظر المحفورة حفراً غائراً على جدران معبد بيت الوالي، ظهر فيه في صورة صبي صغير يستلم جزية بلاد النوبة يقدمها له طائفة من وجهاء القوم.

وقص علينا رع مس سو بنفسه خبر توليه العرش وتتويجه فرعوناً وهو صغير السن، فيقول معترفاً بفضل والده ومفتخراً بجدارته للحكم منذ الطفولة:

«... وأنه لجميل أن يهتم لب الابن بوالده، وبمثل هذا يدفعني

---

(١) مصر القديمة ج (٦) سليم حسن ص ١٥١.

قلبي لعمل أشياء نافعة لسيتي الأول، وأني سأعمل حتى يقول الناس إلى الأبد إنه ابنه الذي جعل اسمه يحيا، ومن أجل هذا سيخصني والدي أوزير بحياة ابنه حور الطويلة جزاء ما سأقوم به من الأعمال الطيبة لوالدي، لأني كنت باراً به. كما كان حور باراً بمن أنجبه، وأني خرجت من رع. قولوا أنتم أن (من ماعت رع) والرب العالمي نفسه أوزير قد نشأني وجعلني أنمو حينما كنت طفلاً، حتى أصبحت ملكاً وأعطاني الملك، ومنذ أن كنت لا أزال في البيضة وكان العظماء يقبلون الأرض أمامي وأنا لم أزل أنشأ بوصفي البكر والأمير الوراثي على عرش جب، وإني وضعت التقرير عن أحوال الأرضين بمثابة قائد المشاة والخيالة، وعندما كان يظهر والدي أمام الشعب كنت طفلاً صغيراً بين ذراعيه وكان يقول عني:

ـ توجوه ملكاً حتى أرى جماله وأنا لا أزال حياً.

وعلى ذلك دعى المهندسون ليضعوا التيجان على جبيني وقيل: ضعوا له التاج على رأسه حتى ينظم هذه البلاد ويدبر شؤونها»[(١)].

وعلى أي حال فنحن بإزاء شكوك قوية تحوم حول وجود ابن بكر لسيتي الأول أو عم لمرن بتاح. وفي فترة تاريخية بلغت أخبارها الموثقة وأثارها الغزيرة حداً يجعل من استنتاج أحداث ووقائع على ضوئها يقارب في أحيان كثيرة اليقين العلمي. والرواية الإسلامية أياً كانت المصادر التي عولت عليها قد اهتمت بالقرابة الوثيقة لمرن بتاح بالرجل المؤمن، أي صلة وقرابة الرحم، وهي التي استأهل بموجبها بنوته للفرعون وبوأته منزلة رفيعة في الدولة، ومركزاً مرموقاً في البلاد، وأتاحت له التدخل المباشر في مجريات الأحداث والتأثير فيها.

فلا مفر إذن من استبعاد نسبة ابن العم هذه، ونقف عند حدود ما حرصت عليه الرواية الإسلامية، ويطابق الواقع ويتفق مع أحداثه،

(١) مصر القديمة ج (٦) سليم حسن ص ٢١٦.

وهو كون الرجل المؤمن ابن لأقرب الناس إلى فرعون موسى صلة ورحماً. ونفترض تأسيساً على ما سبق قوله بأنه ابن أخيه. وبالتحديد ابن شقيقه خع مواست. ونستند في افتراضنا فقط على معطيات القرآن. وعلى الضوء الذي تلقيه تلك المعطيات على شخصيات تلك الحقبة الزمانية، وكان لها دور فاعل ومؤثر في صياغة الأحداث، والافتراض من حيث المبدأ لا يستعين بالواقع التاريخي المبسوط الآن بين أيدينا، وقد لا نجافي الواقع إذا قلنا إنه لا ذكر على الإطلاق لابن منسوب إلى خع مواست تتوفر فيه صفات الرجل المؤمن. وفي الوقت نفسه لا وجود لأدلة وبراهين تدحض الافتراض وتبطله، وتبقى معطيات القرآن والتاريخ الحد الفاصل بين الأمرين، وهما وحدهما اللذان يقويان أو يضعفان من صحة ما افترضناه.

مؤمن آل فرعون: ابن خع مواست وحفيد است نفرت (آسيا بنت مزاحم):

انتسب الرجل المؤمن من آل فرعون إلى الله تعالى انتساباً اختيارياً، وبصفة أخص من صفة كونه مخلوقاً ومربوباً لله تعالى فسماه مؤمناً، يقول تعالى حاكياً عنه:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾[1].

وقد أحدثت تلك النسبة تجانساً وألفة بينه وبين الله تعالى أدت في النهاية إلى قيام صلة حميمة ورابطة وثيقة حظي بموجبها الرجل على أشرف الصفات، ونال بها أرفع الدرجات، وحل عن جدارة واستحقاق بين أهل الإيمان محل الصديقين الأخيار، يقول عنه المصطفى ﷺ:

«سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين، حزقيل..!!!

(١) سورة غافر: الآية ٢٨.

مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار صاحب يسن، وعليّ ابن أبي طالب كرم الله وجهه وهو أفضلهم»[1].

كما روي عنه ﷺ قوله:

«الصديقون ثلاث حبيب النجار مؤمن آل يسن، ومؤمن آل فرعون الذي قال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، والثالث أبو بكر وهو أفضلهم»[2].

وشهادة الرسول ﷺ متساوقة مع شهادة الله تعالى له كافية للإبانة عن معدن إيمان الرجل الذي لم يكن قط بعد كفر أو إلحاد، ولا نتاج طبيعي عن تيه وضلال عاش فيه حقبة من عمره، بل إيمان تشربه عن أسرة ورعة تقية عارفة بالله تعالى عن حق ويقين، مؤمنة به ساعية لمرضاته، ويصاحب هذا كله علم وافر غزير وعقل واع، وصفاء نفس، وكريم معتد ينأى بها من التردي في وهاد الشر ومساوىء الأخلاق، فنشأ به وترعرع عليه، ولما كبر وبلغ مبلغ الرجال نظر وتفكر وتأمل المدروس من علوم عصره وآدابها، وقارن بين حقائق دين قومه وبين ما جاء به رسل الله، ازداد إيماناً مع إيمانه، ويقيناً على يقينه.

إن الأسرة الوحيدة التي تتمتع بهذه الخصال ويمكن أن تحتضن وتنشىء وتربي مثل هذا الرجل المؤمن، ويخرج منها حاملاً لأشرف الأوصاف وأجلها هي أسرة است نفرت [آسيا بنت مزاحم]، الزوجة الثانية لرع مس سو، وهي الأسرة التي أنجبت والده خع مواست، والذي يعتبر وحده من بين سائر إخوانه ـ مرن بتاح ورع مس سو وبنت عنات ـ أشبه بأمه خلقاً وورعاً وتقوى وعلماً.

---

(١) قصص الأنبياء ـ ابن كثير ص ٣٣٠.

(٢) المصدر السابق ٣٣١.

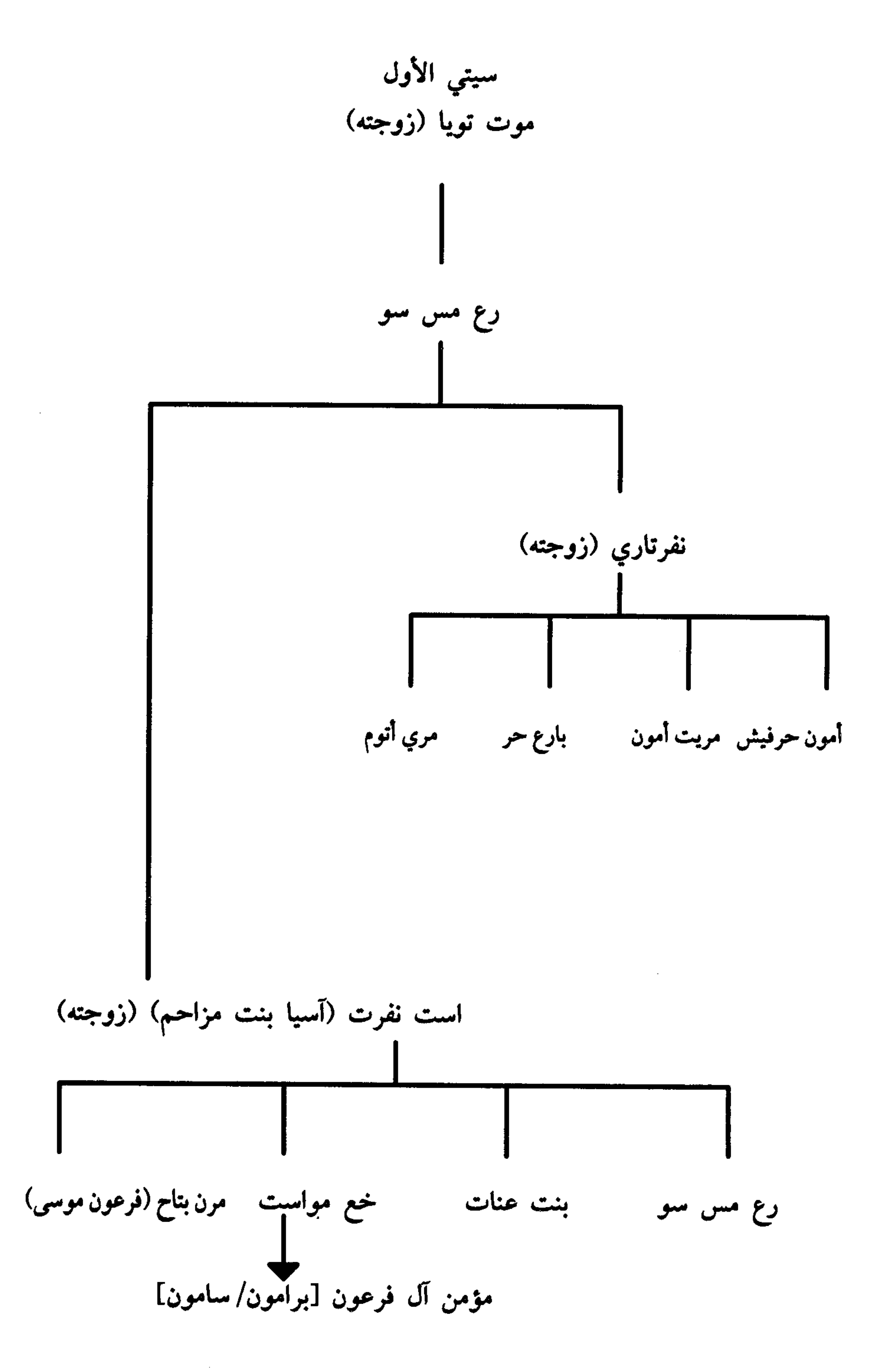
ولو قارنا بين اسم است نفرت أو اسي نفرت أو آيسة نفرت كما يكتب وينطق في اللغة الهيروغليفية، وبين اسم آسيا كما ورد في الرواية الإسلامية وعلى اللسان العربي لأمكننا بسهولة التقريب بين الاسمين واضعين في الاعتبار اختلاف قراءة أسماء الأعلام ونطقها بين اللغتين من جهة، واتفاقهما في مادة الاسم من جهة أخرى.

فآست في لسان العرب[١] يشتق من مادة ست ثنائية الأصل والموجودة في مادتي ستة واست، وترد بمعان دالة في مجموعها على التحتية وما يرادفها في المفهوم، والحرفان الألف والهاء من الكلمتين زائدتان على الأصل ست، وفي مقابل ذلك ترد ست في اللغة الهيروغليفية بمعنى الجنوب، وكانت بلاد النوبة تسمى عندهم تي ستي، أي أرض الجنوب، ويطلق على أهلها ستيو أي الجنوبيون أو النوبيون، وذلك لأن بلاد النوبة تمثل الجزء الأدنى أو الأسفل من مصر، أو تقع في الجهة المقابلة للجزء الأعلى فهي إذن تحت والجزء المقابل لها فوق.

وحرف السين في اسم آسيا سواء في صورته العربية أو الهيروغليفية مقطع أصيل ومستقل بذاته والياء والألف مقطع للإضافة أو للنسبة والهمزة في أوله وفي اللسانين مزيدة على الاسم تماماً مثلما زيد الحرفان الألف والهاء على الأصل الثنائي ست، ولعل هذا ما جعل الاسم ينطق بصيغتين لا صيغة واحدة، ليفيد في مدلوله الثنائي عندهم معنى الجنوبية أو التي من أهل الجنوب، أو بتعبير أدق النوبية، أما عبارة نفرت بتاء التأنيث فصفة وحلية اشتهرت بها آسيا والتصقت بالاسم ولزمته، وتعني الطيبة أو الكاملة أو الخيرة وما يجري هذا المجرى.

---

(١) آلهة مصر العربية ـ علي فهمي خشيم ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤.



مختصر أسرة رع مس سو [الوليد بن الريان]

تحتل است نفرت - آسيا بنت مزاحم - في قائمة زوجات رع مس سو المرتبة الثانية، وقد عقد عليها بعد فترة من زواجه بنفرتاري أم موسى بالتبني، وعلى الأرجح مع فاتحة توليه مقاليد الحكم خلفاً لوالده، وأنجبت له ثلاثة أبناء هم: رع مس سو وخع مواست ومرن بتاح، وبنت واحدة هي بنت عنتا، وهي أول بنت من بناته تزوج بها مقتيداً في ذلك بالطريقة الفارسية، وحملت كأمها لقب الزوجة الملكية، في حين تولى خع مواست ولاية العهد إلى يوم وفاته، ورع مس سو قيادة الجيش، واعتلى مرن بتاح العرش عقب رحيل والده عن الدنيا.

وتوجد اليوم لوحات وتماثيل كثيرة تجمع أسرة است نفرت مبعثرة في متاحف العالم منها على سبيل المثال لوحة نحتها حور محب في صخر جبل السلسلة صور فيها الأسرة بكاملها، ففي الجزء الأعلى منها يشاهد رع مس سو ومعه كاهن تتبعه است نفرت وابنتها بنت عنتا يقدمون صورة (معات) للإله بتاح والإله نفرتم، وفي الجزء الأسفل يشاهد كل من رع مس سو (الابن) وخع مواست ومرن بتاح.

وفي لوحة أخرى تم العثور عليها في الطريق القديم بين الفيلة وأسوان يظهر أيضاً وبنفس النسق السابق، في الجزء الأعلى منها رع مس سو الوالد واست نفرت والأمير خع مواست أمام صورة لخنوم، وفي الجزء الأسفل يظهر كل من رع مس سو (الابن) وبنت عنتا ومرن بتاح وهم يتعبدون.

وصفت است نفرت [آسيا بنت مزاحم] وعلى غير المألوف والمتبع في أوصاف وألقاب ونعوت زوجات الفراعنة بأوصاف ندر مثيلها وقل نظيرها، بل تكاد تنفرد بها وحدها، ففي جزء من تمثال صغير يضمها هي وابنها خع مواست محفوظ الآن في متحف بروكسل كتب على الجانب الأيمن منه العبارة التالية:

«وعندما تدخل في المقر المزدوج فإن قاعة الاستقبال في القصر تضوع بشذا عبيرها، وأنها الحلوة الرائحة بجانب والدها الذي يبتهج

عند رؤيتها، الزوجة الملكية»[1].

وعلى الجانب الأيسر منه تكملة العبارة:

«التي تملأ قاعة الجلسة بعبيرها، وهي المنقطعة النظير بعطورها، إذ تعادل بلاد بونت بشذا أعضائها»[2].

إن هذه الأوصاف في الحقيقة مظهر من مظاهر إيمان المرأة، ودلالة على نور إيمانها في أعين الناس، فاغدق على شخصيتها وسلوكها خصال حميدة وطيبة حببتهم فيها، وجعلتها أثيرة لديهم لا يملون منها أو يزهدون فيها، وأينما حلت تشيع البهجة والحبور في النفوس، يفقدونها إذا غابت، ويأنسون بها إذا أقبلت، وعندما أرادوا التعبير عن تلك المعاني المجردة وتقريبها للأذهان شبهوها بالعطور التي يضوع شذاها الطيب وعبيرها الفواح ليكشف بفرادته عن معدنه الفريد وعناصره الآخذة بمجامع القلوب.

ويمكن اعتبار الأحداث التي أعقبت حلم الفرعون رع مس سو هي الحد الفاصل في علاقة است نفرت بزوجها، فهي التي أدت تلقائياً إلى الانفصال بينهما أو ما يشبه القطيعة الدائمة. وذلك لأن المرأة أدركت ببصيرتها النافذة ما تنطوي عليه نفسه من خبث وكفر، واستهتار بالغ بقيمة الحياة الإنسانية إلى حد تشمئز منه النفوس الكريمة الأبية، ولدى انتقال الفرعون إلى عاصمته الجديدة بر رع مس سو بصحبة زوجاته وأولاده، آثرت هي البقاء في منف عاصمة الدولة القديمة، معتزلة حياة الذين شاركوا الطاغية في ظلمه وعدوانه، ولعلها في تلك الأيام الكئيبة السوداء من عمرها حيث تتراءى لها من بعيد عمليات قتل الأجنة واستحياء النساء وتعذيب الرجال في أعمال السخرة اتجهت إلى الله تعالى داعية بهذه المناجاة الرقيقة:

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ

---

(١)(٢) مصر القديمة ـ سليم حسن ص ٤٣٧.

ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

فهي في دعائها طلبت القرب من رحمة الله، ثم بينت مكان القرب وربطته بالجنة وليس كل جنة، بل جنة أقرب إلى عرش الرحمن، أي جنة المأوى، ثم طلبت الخلاص والتحرر من أقرب الناس إليها من ذات الفرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم، ومن كفره وظلمه، ومن شايعه وأعانه على كفره وظلمه، فكأنها بدعائها هذا تتبرأ من أهل زمانها. وتشهد الله على براءتها وتبرأها منهم جميعاً.

ومن هنا تبوأت است نفرت (آسيا بنت مزاحم) مكانها الطبيعي بين الصديقات من النساء، وخليقة بأن تعد إحدى ثلاث نساء من نساء العالمين بلغن الكمال خلقاً وعلماً وإيماناً، يقول عنهن الرسول ﷺ:

«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث، مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2].

أما خع مواست فقد كان دون سائر إخوانه أشبه بأمه الصديقة الكاملة خلقاً وديناً، وعرف مثلها بالحكمة والتقوى، وفوق ذلك اشتهر شهرة عريضة بتبحره في علوم الدين حتى حظي من بين القلائل في عصره وفي العصور التالية على لقب حكا Hkh أو هيكي Hike[3]، وهو في المعنى قريب من الحكيم، ولكنه يترجم عندهم عادة بالساحر، وذلك لأن القوم كانوا يطلقون على كل عالم ماهر ضليع في مجال تخصصه اسم الساحر، وليس الاسم أو اللقب في اعتقادهم نقصاً يعاب عليه حامله، ومعظم المتضلعين منهم في العلوم الدينية والدنيوية حازوا عليه، ولذلك يذكر السحر في العبادة التقليدية كعلم إلهي لا يدركه سوى الخواص منهم.

---

(١) سورة التحريم: الآية ١١.

(٢) الحديث رواه مسلم ـ قصص الأنبياء ـ ابن كثير ص ٥٢٥.

(٣) آلهة مصر العربية ـ علي فهمي خشيم ص ٣٨٥، ٣٨٦.



منظر داخلي لمقبرة است نفرت [آسيا بنت مزاحم]

فلا عجب بعد هذا أن ارتبط السحر عندهم كعلم لدني إلهي بكلمة أخرى من الكلمات التي تندرج عادة كصفة من صفات الله وهي كلمة (حو)، الدالة على النطق الإلهي الخلاّق، أو بتعبير أدق الكلام الإلهي الذي لا يشبه كلام الناس. وتتضمن الكلمة في مفهوم القوم معنى النطق السلطوي الحاسم لكل شيء، وعلى نحو لا يدرك كنهه ولا يعرف سببه ولا يسبر غوره، ويقف الكل إزاءه بانبهار وإعجاب، ويذعنون طائعين إلى قوته وسلطانه.

وتعلق النطق الإلهي بالسحر يفضي بالضرورة إلى مطابقة كلمة (حو) مع كلمة (وحي) وذلك عن طريق القلب المعهود في اللغات العروبية القديمة [وح - حو] والوحي يشتمل على المعاني السابقة برمتها، أي الكلام الإلهي الخفي والإلهام، ويذعن المتلقى لسحره ولقوته القابضة على عنان القلب والنفس.

ولما جاءهم موسى عليه السلام من عند الله تعالى بالبينات الخارقة للمألوف في معارفهم وعلومهم خاطبوه بالاسم الدال عندهم على تلك المعاني مجتمعة، فقالوا - كما حكى الله تعالى على لسانهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾(١).

ترك لنا خع مواست خطاباً طويلاً موجهاً للإله نقشه على قاعدة تمثال، والخطاب ورد في صيغة صلاة لا ينبي محتواها على صدورها من شخص عادي متواضع يتضرع إلى خالقه، بل هي دعاء من عالم ديني عظيم القدر، حاذق في علومه الدينية حذقاً ترقى به إلى أعلى الآفاق وأسماها. نجتزىء منها السطور التالية.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٤٩.



العالم/خع مواست ابن است نفرت [آسيا بنت مزاحم] ووالد مؤمن آل فرعون

ليتك تعطي النفس لابن الملك الكاهن خع مواست. وهو ذلك النفس الحلو الذي في أنفك، وإن ابن الملك خع مواست صادق القول يتخذ مقعده على العرش العظيم الذي في هرمو بوليس، ابن الملك خع مواست يحرس بيضة الصائح العظيم، وكما أنها ثابتة فإن ابن الملك خع مواست ثابت والعكس بالعكس، وكما تعيش فإنه يعيش، وكما أنها تستنشق الهواء فإنه كذلك يستنشق الهواء.

يا أكبر الآلهة ويا أفخر ممن سواه، ليتك تشاهد ما يفعل ابن الملك الكاهن خع مواست، لقد عمل على أن يجعلك عظيم الشكل وأنه يعيش بوساطتك يا أيها الإله، ليتك تنصبه حاجبك الوحيد، وإنه حام يحوم حول الجبانة، وإنه هو الذي يقبض على سواعد أعدائه كل يوم، ليتك تظهر بفخار بوساطته بمثابة رب العرابة بقدر ما تعطيه ثباتاً وفلاحاً وبقاء في معبدك لأنه ابنك وحاميك»[1].

ولعل الثقافة الدينية الرفيعة التي تمتع بها خع مواست هي التي جعلته أحب أبناء أبيه إلى نفسه، وأكثرهم اتصالاً بهم وثقة فيه، حتى أنه عينه في السنة الثلاثين من حكمه وبعد تخطيه الخمسين من عمره ولياً للعهد ومشاركاً له في إدارة البلاد، فاضطر للانتقال إلى منف مقر ولي العهد، ثم قلده ـ مع ولاية العهد ـ وظيفة كبير كهنة منف المطلع على كل ما يجري في المعابد، وبهذا المنصب يكون والده قد سلم مقاليد الأمور كلها لابنه وخليفته من بعده.

وجه خع مواست كل جهوده وعنايته على المحافظة بدقة وصرامة وأمانة على الشرائع الدينية، كما أشرف شخصياً على الاحتفال بأعياد الفيضان والأعياد الخاصة بأبيه بدءاً من العيد الأول من العام الثلاثين من عمر حكمه وحتى الخامس من العام الثاني والأربعين، وسار على هذا المنوال مدة تقرب من ربع قرن من الزمان وتوفي في العام

---

(١) مصر القديمة ج (٦) سليم حسن ص ٤٤٤.

الخامس والخمسين من حكم والده الطويل، تاركاً ولاية العهد لأخيه مرن بتاح.

اسم مؤمن آل فرعون:

أطلق الفراعنة على مواليدهم أسماء لا من قبيل التعيين الإشاري أو الدلالي مثل سائر الناس، بل لما يتضمنه الاسم من معان في الحياة المادية والروحية وفي العالمين الدنيوي والأخروي، وتبعاً لذلك عنوا عناية فائقة باختيار الأسماء، وتحوطوا غاية التحوط للإبقاء عليها وتخليدها في مختلف الصور والأشكال، ومنعوا عنها كافة صور المحو والإزالة والتشويه، وذلك لاعتقادهم بأن القضاء على الاسم فيه القضاء المبرم على الكيان الروحي والمادي والدنيوي والأخروي لمن يحمله.

ولا زالت إلى يومنا هذا توجد كثير من التماثيل والصور والنقوش تحمل أسماء موتاها ليكتب لها الخلود، وكان من الواجبات المنوطة بكل ابن رعاية قبر والده ومدفنه والمحافظة عليه كي لا يطوي اسمه في زوايا النسيان، وإذا حدث وفقد المرء منهم ذاكرته في العالم الآخر ويوم الحساب، فهناك دعاء خاص يعالج هذه الكارثة، وذلك لأن الروح التي لا تحمل اسماً لا تحاكم وبالتالي لا يسمح لها في الحياة الخالدة والنعيم المقيم، جاء فيه:

«إلا فليعط لي اسمي في البيت العظيم، إذا تقدم نحوي أي إله، فلأكن قادراً على ذكر اسمي فوراً»[1].

ونتيجة طبيعية لتشبع القوم بتلك المعاني، فلا ريب في أن الخلفية النفسية والاعتقادية لمعظم أسمائهم يغلب على تعبيرها روح الدين والتدين، وتحمل طابعاً دينياً صريحاً، كالاعتراف بفضل المعبود أو وصفه بما يليق بعظمته وجلاله، أو بيان عن تبعية المسمى له،

---

(١) مصر والشرق الأدنى القديم ج (٤) نجيب ميخائيل ص ١٠.

وارتباطه به، منها على سبيل المثال لا الحصر:

نفر مرن بتاح (جمال وجه بتاح)، وأمون حمات (أمون يحميه) أو بمعنى أنه والد الطفل وسنموت (أخ المعبودة موت) وعنخى مع بتاح (حياتي في يد بتاح)، وغيرها كثير من الأسماء ذات البعد الديني البحت.

ومن ذات المعين الديني الذي لا ينضب، ومن شدة تعلقهم بما هم عليه من اعتقاد نحى والد مؤمن آل فرعون في تسمية ابنه منحى دينياً صريحاً، وهو شيء خليق به كرجل دين يرغب في أن يكون اسم ابنه بياناً وإظهاراً لارتباطه بخالقه. والاعتراف له بالفضل على ما أولاه من نعمه.

بيد أننا نواجه ليس باسم واحد فحسب لمؤمن آل فرعون يسهل التعامل معه، بل نواجه بطائفة لا يستهان بها من الأسماء وردت جميعها وبطبيعة الحال في المؤلفات الإسلامية، وهي على كثرتها تندرج تحت مجموعتين:

الأولى: ذات لكنة غريبة على أسماء الفراعنة وعلى اللسان الهيروغليفي أبرزها خربيل وحزقيل بن صبورا وحبرك وجبريل وحزئيل بن مخائيل.

والثانية: مطابقة إلى حد كبير في النطق للتهجئات المألوفة في أسمائهم أبرزها برعمون (برامون) وسمعان وسيمون وشيمون (سامون). وشمعون وشمعان، والأخير يقول عنه أكثر المفسرين «لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون»[١].

وأسماء المجموعة الأولى يستحيل قبول أي منها ولو على فرض الاحتمال، وذلك لأن الفراعنة على كثرة احتكاكهم واختلاطهم بالشعوب العروبية المجاورة لهم لم يتأثروا على الإطلاق بتقليد الأسماء

---

(١) على سبيل المثال انظر تفسير القرطبي ج (١٣) ص ٢٦٦.

الأجنبية، بل ظلت مظاهر هذا التأثر نادرة للغاية، والأسماء التي ظهرت في بعض الحقب التاريخية ترجع في أصلها إلى قدوم أغراب حاملين معهم أسماءهم الوطنية، كما حدث في عصر الأسرة الثامنة، إذ ورد في أحد كشوف الغنائم في عصر الفرعون اموس اسم عشتر (عشترامى) أي عشتر والدتي، وكذلك في الدولة الحديثة ظهر اسم (مانى نختف) ومعناه رايت قوته. وكلاهما من الأسماء البابلية المحضة مقطوعة الصلة بأسماء الفراعنة.

علاوة على ذلك فإن كل اسم من هذه المجموعة يختم بكلمة (يل). وايل كما هو معروف اسم عربي صرف يعود في معناه إلى النور، ويستند جذره اللغوي على (الل) بمعنى سطح بالنور أو شع وأضاء، وكان معروفاً بالصيغة نفسها في كل مجاميع النقوش العربية، وعند كل سكان جزيرة العرب، وكذلك عند الساميين الشماليين كالكنعانيين والآرميين، وبمعنى يطابق الإله أو الرب، وبعبارة أدق كان هو الاسم المشترك بين جميع أسماء آلهة العرب، ويطلق ويراد به دوماً الإله العلي أو الإله العظيم ومنها تطورت أو اشتقت كلمة الإله أو الله في العربية الفصحى.

وجرت العادة عند الشعوب العربية القديمة باستثناء الفراعنة على إضافة اسم (أيل) إلى أسمائهم وأسماء ملوكهم تيمناً وتبركاً، منها اسم الملك الكنعاني (حزئيل) أيل يرى و (طابئيل) أيل هو صالح، ومنها في جزيرة العرب (إسماعيل) ومعناه اسمع أيها الإله أيل، ولما كانت دعوة أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الإله (أيل). فقد اقترن الاسم بأسماء أتباعه، منها (صموئيل) أي المنذور إلى الإله أيل. (وميخائيل) أي ليحم الإله أيل المدعو ميخا. ولم يشذ عن هذا الإجماع حتى الهكسوس العرب الذين حكموا مصر وتأثروا بالعادات والثقافة الفرعونية، فاتحذوا اسم الإله أيل للتبرك به، حيث من بين اسماء ملوكهم (يعقوب أيل)، أي ليحم الله يعقوب.

وفي مقابل (أيل) العربية الأصل والجذر أطلق الفراعنة على كل إله معبود اسم نتر أو نثر دون تخصيص ويتضمن في دلالته العامة على معاني القدرة والقوة والسيادة والربوبية، واستخدموه كما استخدمه إخوانهم الساميين في أسماءهم تبركاً وتيمناً منها (أيما أيب نتر) الإله يتخذ منه موقف ودي، و (انجونتر) الذي ينقذه الإله، و (عنخ نتر) ليحيا الإله، و (مرى نتر) الذي يحبه الإله، و (سمر نتر) رفيق الإله. وغيرها.

أما الإله ذو الوجود الذاتي، ويملك القدرة على خلق الأشياء، وينعم عليها بالحياة والوجود، فقد أطلقوا عليه اسم (أرتي Irty)[١]، ويعنون به إله الكون والخلق، الواحد العظيم والنور اللامتناهي، وهو يقابل عندهم بالتحديد اسم الله، ويحتل في تصورهم المفهوم نفسه الذي لإخوانهم الساميين.

واستناداً على ما مضى ذكره فيمكن بيسر وسهولة استبعاد كل اسم ختم أو اقترن بكلمة أيل، وبالتالي لم يبق لنا إلا الأسماء ذات الصبغة الهيروغليفية والتي ورد منها اسمين فقط هما برامون (برعمون) وسامون (سمعون ـ شمعون) أما أياً منهما المطابق للاسم الحقيقي الذي سمي به الرجل المؤمن فأمر من العسير الكشف عنه، أو حتى الوصول فيه إلى ما يقارب الحقيقة، ولكن من المؤكد أنه اسم تعتبر كلمة أمون واحدة من مكوناته الأساسية.

ويرد اسم أمون[٢] في لسانهم بمعنيين مختلفين:

أولهما: أمَنْ بمعنى الماء أو المياه والأمواه، ولذلك ألحق بآخره

(١) لا يزال يطلق على الله تعالى في اللغة النوبية وعند النوبيين في شمال السودان اسم أرتي، ويشيع بين السودانيين من ذوي الأصول العربية حديث، يصر العامة منهم على أنه حديث نبوي شريف، ونص الحديث: «عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لعن الله قوماً يقولون لله آرتي».

(٢) آلهة مصر العربية ـ علي فهمي خشيم ص ٣٠٧.

حرف النون علامة الجمع في لغتهم.

وثانيهما: أمون بمعنى الاختفاء وعدم الظهور والخفي والسري، أو بعبارة أدق الباطن والمستور، ويستخدم عادة كاسم ووصف للإله الكبير المتعال.

والمعنيان يدوران بكثرة على أسماء قدماء القوم، ودخل اسم أو صفة أمون في تركيب عدد كبير من أسماء الفراعنة أشهرهم توت عنخ أمون أي ابن ماء الحياة وأمنمابة بمعنى أمون في الحرم، وغيرها كثير جداً.

وبالمعنى الثاني لا الأول سمي الرجل المؤمن برامون أو سامون، وحكمة بر ترد بمعنى بيت ومعبد ومدينة وبمعنى خرج وظهر ومثلها مثل كل الأسماء ذات المعاني المتعددة يفهم المراد منها بالإضافة إلى غيرها أو ضمن سياق النص، وتقرأ في النصوص المكتوبة بدون علامة الإضافة أو بواسطة إشارة أو علامة تنطق في الغالب (ن) توضع بين المضاف والمضاف إليه، وفيما يبدو فإن اسم الرجل المؤمن ورد بلا إضافة، ولذلك يفهم أن المعنى المراد منه هو بيت أو معبد أمون.

أما كلمة سا فمساوية في المعنى لكل من مس وسو وموس، ولكنها على خلاف تلك الكلمات تكتب عادة بدون حرف أو علامة الإضافة، وذلك لأن الكلمة نفسها قد تحولت إلى أداة إضافة لتقابل في اللغات العروبية والعربية الفصحى كلمة ذا وذو وابن، الأمر الذي أدى إلى اختلافها عن الكلمات المرادفة لها في المعنى، فتحول مركب الكلمتين إلى اسم واحد (سامون ـ سيامون) وكان يطلق على كل ابن للمعبود أمون، ويكتب ويقرأ بلا إضافة أو إشارة.

الفصل الثالث
مؤمن آل فرعون ومصعب بن الوليد



الرسالة:

إن الدعوة الإلهية بحكم طبيعتها العلوية وما تتضمنه من علوم ومعارف ربانية نورانية تحتاج إلى نوع من الناس أُوتيت حظاً وافراً من كمال العقل وسلامة التكفير وصفاء النفس، وفوق ذلك قوة ذهنية عالية على الإدراك والفهم، كي تسبر غورها، وتقف على مقاصدها القريبة والبعيدة، وقد اجتمع هذا النوع الفريد من البشر في زمان مبعث موسى عليه السلام مع الفرعون مرن بتاح (مصعب بن الوليد)، بحيث شكلوا من حوله طبقة رفيعة من ذوي العقل والنهي والرأي السديد والثقافة العميقة، والإدراك الواسع، وهؤلاء إذا حملوا أنفسهم على قبول الدعوة والإيمان بما جاء به موسى، تبعهم من هم دونهم في العقل والعلم والإدراك، إما تعلماً منهم، أو تقليداً لهم.

ومن هذا المنطلق كانت دعوة موسى عليه السلام موجهة أولاً للفرعون مصعب بن الوليد، وثانياً إلى من التف حوله من كبار رجالات الدولة والعلماء ورجال الدين والخبراء، فيقول تعالى قاصداً إياهم بالخطاب التكليفي وبالدعوة والرسالة:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[1].

ويقول أيضاً:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾[2].

وملأ فرعون كما يتضح من الآيتين هم غير آله وغير قومه، وذلك لأن آل فرعون ـ كما بينا ـ هم خاصته وأهل بيته ممن تجري في عروقهم دماء السلالة الفرعونية، والقوم هم ممن يشكلون في مجموعهم ـ رجالاً ونساء ـ شعب الفرعون. يقومون بناء على تلك النسبة بأمره، ويخضعون لسلطانه وإرادته، أما الملأ فهم أشراف المجتمع من ذوي الحسب والنسب، والأسر العريقة كريمة المعتد الذين يحيطون به. ويقومون نيابة عنه بأمر الدين والدولة، فيشكلون في مجموعهم الطبقة الحاكمة وسادة المجتمع وزينة زمانهم، يعظمهم الناس ويجبلونهم، ويملأون عيونهم جمالاً، ونفوسهم بهاء وجلالاً، وقلوبهم هيبة ووقاراً.

ثم خص الله تعالى بالذكر منهم اثنين هما هامان وقارون، ووجه إليهما موسى بالدعوة والرسالة، وخاطبهم ضمن سياق واحد مع الفرعون في إشارة صريحة إلى قوة نفوذهما في المجتمع وسمو مكانتهما، وعلو كلمتهما، فيقول عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[3].

ويقول أيضاً:

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٢) سورة هود: الآيات ٩٦ ـ ٩٧.

(٣) سورة غافر: الآيات ٢٣ ـ ٢٤.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾[١].

أما هامان فإن مادة اسمه الأصلية من أمن وأمون. وأضيفت إليه (الهاء) لإفادتها معنى يقرب من العلو والعظمة وسمو الرفعة، ليشكل مجموع الكلمتين [ها + مان] لقباً واسماً ويعني كاهن أمون الأعظم، أو كبير كهنة أمون، وكان يحمل حرفياً لقب الخادم الورع للإله أمون رع ملك الآلهة. وكانت الكهانة بالفعل تعد أعلى سلطة دينية في الدولة والمجتمع، إلى حد أن الفرعون نفسه لا مفر له من الحصول على رضا الكاهن الأعظم ليرقى في العرش ويثبت فيه ناهيك من أن أجل أوجه الأنشطة الكهنوتية كان تنحصر في العناية بشخص الفرعون وجسده، بدءاً من تغذيته واغتساله حتى العناية بشعره وذقنه المستعارين.

ومن المحتمل أن المعنى بالذكر والخطاب في الآيتين السابقتين هو الكاهن (رومع روى) والذي كان كاهناً أعظم لأمون في أخريات حكم رع مس سو وطوال فترة حكم مرن بتاح، وكان يتمتع بسلطة واسعة وقوة سياسية مستقلة عن الفرعون، تخول له الإشراف المباشر على الحياة الدينية والدنيوية، ومن هنا ذهب جمهرة من المفسرين إلى أن هامان هذا كان وزيراً للفرعون، تبوأ بوزارته مركزاً مرموقاً في الدولة جعله ذو نفوذ ضخم، ومؤتمناً على مقاليد الأمور، ومهيمناً على مجريات الأحداث.

وأما قارون فقد كان كما ورد في روايات المفسرين «رئيساً على بني إسرائيل»[٢] أو «ملّكه الفرعون على بني إسرائيل»[٣] وليس لهذا إلا معنى واحد هو أن الطبيعة الانعزالية لبني إسرائيل، ونفورهم الغريزي من الاندماج في غيرهم دفعت بالدولة والفرعون إلى تخصيص فرد

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٣٩.

(٢) تفسير الطبرسي ج (٣) ص ٤١٦.

(٣) تفسير الزمخشري ج (٣): ص ٤٣٢.

منهم يتولى شؤونهم، ويفصل في منازعاتهم الشخصية، وغيرها من الأمور التي لا تمس سلطة الدولة وقوانينها، وفيما يظهر وقع الاختيار على قارون إما لتبحره في دين قومه، أو لانسلاخه عن أبناء ملته ثقافة وفكراً واندماجه الكامل في الدولة والمجتمع، فاستغل مكانته ومنصبه في الدولة فجمع ثروة هائلة يحار العقل في كثرتها واختلاف أنواعها، يقول تعالى في وصفها:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾[1].

وبطبيعة الحال منحته تلك الثروة الضخمة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة قوة هائلة ليس فقط على مجتمع بني إسرائيل المنعزل، بل أيضاً في البلاط الفرعوني، وأهلته ليدخل في زمرة أعيان الدولة ووجهاء المجتمع وسادة القوم وكبراءهم، أي ضمن الأشراف وملأ الفرعون، بحيث تحول إلى ملك غير متوج على بني إسرائيل. وفي الوقت نفسه تبوأ مركزاً خطيراً في البلاط وبسلطات دستورية واسعة جعلته نافذ الكلمة مؤثراً في مجريات الأحداث. وقابضاً بكلتا يديه على كنوز من المال يستطيع توظيفها لمختلف الأغراض بلا حسيب أو رقيب، ومن هنا خاطبه الله تعالى وعلى قدم المساواة مع هامان وفرعون بلا فارق يذكر.

على أن الخطاب الإلهي قد وجه رأساً إلى الفرعون، إذ هو وحده الذي يملك مفاتيح الحل والعقد، وهؤلاء جميعاً إذا عارضوه في الرأي فلن يخالفوه فيما يقدم عليه. ولذلك أمر الله تعالى موسى أن يترفق معه في القول، ويلين له في الحديث، ويعامله معاملة من يأمل انشراح صدره لقبول الحق والعمل على تحقيق المراد من الرسالة والدعوة، فقال له موسى:

﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ

(١) سورة القصص: الآية ٧٦.

﴿إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾[١].

إن مناداة موسى عليه السلام للفرعون بالاسم الدال على سعة ملكه وقوة سلطانه من الأشياء المتعارف عليها في مراسيم البلاط، بل هو من قبيل الإعزاز والإكرام، وقد أراد به موسى أن يكون مدخله لبيان الصفة الجديدة التي جاءهم بها وهي كونه مرسلاً ومبعوثاً من عند الله رب العالمين، وهو ناطق في قوله بالحق، ومخبر بالصدق عن الحقيقة، يؤيده في قوله ودعواه حجج واضحة وبراهين دالة على صدقه، ثم كشف له أن دعوته ورسالته ليست عامة، بل مقصورة فقط على تحرير قومه، والسماح لهم بمغادرة البلاد إلى الأرض المباركة.

وقيد موسى عليه السلام الإرسال والتخلية وإنقاذ قومه بقوله (معي)، في لفتة بارعة إلى أن جوهر الرسالة كامن في تلك الصحبة والمعية، وذلك لكي يقودهم هو ويرشدهم إلى حيث يشاء الحق عز وجل، وعدا ذلك كدعوته لفرعون وملأه بالتوحيد وعبادة الله وإثبات تلك الدعوة بالآيات البينات، فمقدمة لتأييد الرسالة والبرهنة على صدق المرسِل والمرسَل، أو كما هو شأن الأنبياء دوماً دعوة لتغيير المنكر الشائع بينهم.

لمس الفرعون في كلام موسى عليه السلام هكذا مباشرة جرأة منقطعة النظير، وتجاوز لحقائق كثيرة من حياتهم وفي علاقاتهم مع بني إسرائيل ليست جديدة عليه أو غريبة عنه، ناهيك عن تعديه لأبسط ما يجب مراعاته أمام ذاته المؤلهة والمتألهة، ولا يناسب مطلقاً حال من هو مدين لهم أصلاً بوجوده وحياته، فقال له كالممتن عليه قولاً ملؤه الازدراء والاحتقار والتنقص:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾[٢].

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٨ ـ ١٩.

نحى الفرعون في رده على موسى عليه السلام منحى الاستفهام التقريري على نفي أياديهم البيضاء عليه، في حين كان مقصوده الاقرار بوقوع الإنعام عليه صغيراً وكبيراً، فكأنه أراد أن ينزل موسى منزلة الناكر للجميل، ويعرضه للملأ في حال المتناسي لأفضال عميمة لا يتجاهلها أو يتناساها إلا الجاحد، فهم الذين التقطوه من نهر النيل، ولم يقتل كما كانت تقتل الأجنة، وتعهده آل فرعون بالرعاية والتربية في حداثته وقربه من الولادة، ومكث بينهم حتى ناهز الثلاثين من عمره.

وفي خاتمة تعداده لنعمهم عليه وبخ موسى عليه السلام على فعلته الشنيعة باعتدائه على حياة رجل من موالي الفرعون وخاصة قومه، انتصاراً لبني جلدته الذين هم في جملة عبيد الفرعون، مما يعد كفراناً صريحاً لنعم الفرعون عليه، إذ كان من أوجب الواجبات عليه أن يعتبر نفسه من خواصهم وربيب نعمتهم، فلا ينتصر إلا لهم ولا ينافح إلا عنهم.

لم ينكر موسى عليه السلام نعمة آل فرعون عليه، أو يتنصل من أفضالهم عليه، وحقهم في الشكر لا يجهل، وعرفانهم لا ينسى على مدار الأيام، والاعتراف به في حضرة الفرعون أمر لا يقتضيه المقام، وقد يصرفهم عن مجرى المحاورة، ولأجل ذلك ركز موسى كلامه في الاعتراف برباطة جأش بما جنت يداه، وبفراره منهم خائفاً على أثر مقتل الرجل وما نجم عن هروبه من تغير حاله الذي قاده للعودة إليهم من جديد غير خائف ولا وجل. فقال لمرن بتاح:

﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾(١).

أقر موسى عليه السلام بفعلته بلا تهيب، فقد فعل ما فعل منذ

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٠ ـ ٢١.

زمن بعيد. وتذكيره بها بعد هذا الزمن الطويل لا جدوى منه، إذ فعلها حين فعلها في سورة غضب أعمته عن مراعاة أبسط حرمات النفس الإنسانية وحقوقها، حتى جهل وقتها أن الوكزة تفضي إلى الموت، وليس عليه فيما فعل وهو على تلك الحالة توبيخ، ولما خاف على نفسه من أن يؤاخذ على فعلة صدرت عنه بلا قصد أو تعمد، وكان جاهلاً بعواقبها الوخيمة فر تجنباً لانتقامهم، وغير مقدر لما جره عليه فراره من خير حيث أنعم الله عليه بالإصلاح والهداية، واختاره نبياً ورسولاً لخاصة قومه.

ثم أجاب الفرعون عما امتن به عليه من الإنعام والتربية والإحسان فقال له:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾(١).

أبى موسى عليه السلام في إجابته تلك إلا أن يقابل بين النعم التي امتن بها الفرعون عليه وهو واحد من بني إسرائيل، وبين استعباده وقهره لبني إسرائيل وتذليله لهم في أعماله الخاصة وفي مشاريع الدولة، وهو في مقابلته أو مقارنته بين الحالين كالمقر والمعترف له بأفضالهم عليه، والمنكر عليهم في الوقت ذاته ما ألحقوه بقومه من أذى واضطهاد، وهذا وذاك مهما قل أو كثر لا يدحض في رسالته، ولا مدخل له في دعوته ورسالته.

ولعل في إجابة موسى الحاسمة لأي شكل من أشكال المعارضة هي التي حولت الفرعون تحول المغلوب إلى فحوى الرسالة ومضمون الدعوة، فاستفهمه استفهام من يرغب في الكشف عن شيء يجهله فقال لموسى:

﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

إن استفهام الفرعون هو محاولة منه لمعرفة الحقيقة الخاصة

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٣.

والكلية والمميزة عن سائر ما يعرف عن الله تعالى من حقائق. فقد قرع سمعه شيء لم يألفه من إثبات رب واحد للعالمين، في حين تنهض عقائدهم على آلهة كثيرة ومتفرقة تتحكم في مصير العالم، ولذلك أراد أن يضع له موسى حداً لماهيته وتعيين لذاته بما يميزه ويجانسه، عندئذ أدرك مبلغ جهله، واستحالة هذا النوع من المعرفة، فأضرب عن مراده وأجابه بما تصل إليه العقول من معرفة الله، أي بذكر أفعاله الخاصة وصفاته الذاتية وأثاره في الوجود، فقال له:

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[1].

فموسى عليه السلام هنا يعني برب العالمين الذي خلق السموات المشاهدة لكل عين ونظر، وما فيهما من مخلوقات تخرج عن دائرة العد والإحصاء، ويعلم كل ذي عقل استحالة حدوثها من ذاتها أو خلقها لنفسها، بل لا بد لها من موجد وخالق ومحدث، وهو الله تعالى رب العالمين.

ثم نزل موسى بالفرعون من التعميم إلى التخصيص والتفصيل لآثار خلق الله تعالى فقال له:

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

أي أعطى مخلوقه كل شيء يحتاج إليه في حياته، وقدر لكل كائن وظيفة خاصة لا يحيد عنها، وحدد لكل مخلوق غايته في الوجود والحياة، وهداه إلى تحقيق هذه الغاية، فعلى سبيل المثال أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، فأعطى العين الهيئة التي تطابق الأبصار والآذان الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك سائر الأعضاء، وهذه الهداية مبثوثة في كل المخلوقات وتشهد بها الكائنات جميعها.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٤.

(٢) سورة طه: الآية ٥٠.

عندئذ قال فرعون للملأ من قومه منكراً على موسى عدوله في إجابته:

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾[1].

وذلك لأن الفرعون ـ كما بينا ـ يسأل عن المجانسة والمشاكلة والمماثلة وموسى يجيبه عن الصفات والأفعال والخصائص، فأعرض عن خطاب موسى في صلف وازدراء واتجه نحو أمراء البلاط والوزراء والكهنة مستشيراً إياهم ومستفهماً لهم استفهام تعجب وتهكم عن حالهم، كيف لم يستمعوا إلى ما قاله موسى، فأنزلهم منزلة من لم يستمع أو ينصت إلى ما قاله من كلام يضاد عقيدتهم وتنبؤ عنه آذانهم، ويستحيل عليهم قبوله بأي حال من الأحوال.

ولما رأى موسى عليه السلام عدم اقتناع الفرعون وملأه بأدلته وبراهينه، أتاهم بدليل من أنفسهم يفهمونه ولا يتعنتون فيه تعنتهم فيما سواه، فقال:

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2].

وبطبيعة الحال فكلهم يعلمون عن خبرة وواقع معاش أن لهم آباء وأجداد ماتوا ودفنوا، ولهؤلاء أيضاً آباء وأجداد سبقوهم في الحياة ولاقوا المصير نفسه، وهؤلاء وأولئك كانوا بعد أن لم يكونوا، مما يقطع بوجود خالق أوجدهم بعد عدم، وبيده الموت والحياة.

ومن البديهيات أن الحديث عن أحوال النفس والآباء والأجداد أقرب منالاً وأيسر استدلالاً على الخالق، ولكن الفرعون كابر وعاند ككل الطغاة لقبول الحق، وعد كلام موسى ضرب في مجاهيل الغيب الذي لا يقوم عليه دليل، ولا يقف شاهداً على ربه، عندئذ سأله عن

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٥.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٦.

حال من تقدمهم من الناس قائلاً:

﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1].

وأياً ما كان الأمر فقد جوبه الفرعون والملأ من قومه بقوة حجة موسى عليه السلام، فعمد فرعون المحاور الأول إلى التشغيب، وذلك بالانتقال إلى أحوال ما سلف من البشر، وكيف أحاط الله بهم علماً على كثرتهم وتباعد ديارهم، فأجابه موسى.

﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2].

إن سؤال الفرعون عن غيب، والغيب علم استأثر الله تعالى به، وأحوال القرون الماضية من الخلق وأعمالهم محصاة ومحفوظة ومكتوبة عند الله في اللوح المحفوظ، وسوف يحاسبهم على أعمالهم كثرت أو قلت، ويستحيل على الله الخطأ والنسيان.

حينئذ قال الفرعون مستخفاً بإجابة موسى وموجهاً الحديث إلى الملأ من قومه:

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[3].

وفي تأكيد الفرعون على جنون موسى إشارة خفية بأن حالته لا تؤذن بالجنون، بل إن جنونه موضع شك، فكأنه بحرصه على تأكيد جنونه أراد أن يوعز لمن حوله بأنه قد علم من حال موسى ما لا يعلمه السامعون، وأدرك من اضطراب عقله ما لم يصل إليه سواه.

ولما فطن موسى إلى غاية الفرعون ومراده من اتهامه له بالجنون، رد عليه وعلى من حوله بما لا قبل لهم على جحده، وبما لا يلتبس عليهم شأنه فقال:

---

(١) سورة طه: الآية ٥١.

(٢) سورة طه: الآية ٥٢.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢٧.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

ومقصود موسى عليه السلام بهذه النقلة الفريدة في مناقشته القوم وحواره مع الفرعون، هي أن يضعهم في مقارنة ظاهرة، بين ملك رب العالمين الذي يمتد على امتداد المشرق والمغرب، وبين ملك الفرعون المحدود مكاناً ومساحة، ثم تركهم بعدها لأعمال عقولهم، لو كانوا يعقلون.

عند هذا الحد من الحجج والأدلة انقطع الفرعون عن الحوار وعن المجادلة بالحسنى، ورجع من جديد إلى الاستعلاء والتكبر والتخويف والوعيد ليستأصل الدعوة من أساسها، شأنه شأن من قهرته الحجة وأفحمه الدليل، وفيه من الكبرياء والتجبر ما يصرفه عن الجدل إلى التهديد المباشر باستخدام القوة. فقال لموسى:

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[2].

والفرعون هنا أكد تهديده ووعيده بما يساوي اليمين المغلظة والمستفادة من اللام في قوله: لاجعلنك، أي عليّ يمين لأجعلنك واحداً ممن يضمهم سجني، مذكراً إياه بأهوال السجن، وموسى من جانبه يدرك جيداً قسوة سجونهم، لا سيما ما استحدثه فيها مرن بتاح، إذ كان كما يقول الزمخشري:

«يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض، بعيدة العمق فرداً لا رفيق له ولا أنيس، لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشد من القتل»[3].

لما تأكد لموسى عليه السلام أن الفرعون يكابر عن جهل، ولا مطمع في الاسترسال معه بالاستدلال بحجج العقل وبيناته، وظهر له

---

(1) سورة الشعراء: الآية ٢٨.

(2) سورة الشعراء: الآية ٢٩

(3) تفسير الزمخشري ج (٢) ص ٣٠٩.

عدم اقتناعه ببرهان العقل لقصوره عن النظر فيه، وتعاميه عامداً عن الحق، عدل عن البينة كمرادف للحجة إلى إظهار الآية كمرادف للمعجزة وخارق للعادة، ليسد عليه تماماً منافذ المكابرة واللجاجة فقال له كمن يطمع في إيمانه وهدايته:

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾[1].

أحس الفرعون لدى سماعه تلك العبارة الرقيقة برغبة موسى في مزيد من المجادلة والحوار حتى يصرفه عن وعيده وتهديده، فطمع هو الآخر في أن يعثر فيما سيجيء به موسى من شيء مبين أو غير مبين على ثغرات لمعارضته وإبطال دعواه، فقال له:

﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2].

ورد الفرعون كما هو بين بنفسه يقتضي أن فرض صدق موسى فرض ضعيف، ولم يبق له إلا تحقيق ما سيجيء به لتصح دعواه ويثبت صدقه، وذلك لأن الآية يأتي بها الصادق في دعواه، وهي في حد ذاتها تصديق من الله تعالى لمدعي النبوة، والحكيم العاقل لا يصدق الكاذب مدعي النبوة.

إذن فالمقام مقام إظهار الخارق العظيم للعادة والذي يبهر الأنظار، والآية الكبرى التي تأخذ بالألباب والعقول، وتنحني لها هامات العارفين، فرمى موسى العصا التي كانت في يده، وهي عصا عادية مثل سائر العصى، ذات شعبتين في رأسها، ومحجن في طرفها. وإذا بالمفاجأة التي صعق لها جميع الحاضرين، فقد انقلبت العصا ثعباناً عظيم الشكل، بديع الضخامة، كثير الاضطراب، شديد الحركة كما لو كان جاناً، لا شك فيه ولا شبهة، بل لم يدر بخلد أي منهم أنه ثعبان وليس بثعبان كما يفعل سحرتهم، وبينما الفرعون والملأ من

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٣٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٠٦.

قومه في حالة من الذهول المربك، والفزع الشديد يأخذ بمجامع قلوبهم، تناول موسى الثعبان فعاد عصا كما كانت لا تختلف عن غيرها من الأعواد في شيء.

وبعد برهة وجيزة والجميع مشدودين إلى ما يجري أمامهم، بسط موسى يده للفرعون، فرأى يداً لا تثير انتباه أحد، ثم أدخلها في جيب جبة الصوف التي كان يرتديها وأخرجها، فإذا بالمفاجاة الثانية التي أخذت هذه المرة بأبصارهم، فقد تحولت اليد إلى اللون الأبيض شديد البياض، وسطع منها نور يتلألأ كنور القمر،ويغلب عليه نور الشمس في إشراقه وبهاءه، كلت منه الأبصار والعيون، وأضاء من شدة نوره ما حوله، ولما أدخل موسى يده ثانية في جيب قميصه، وأخرجها ثانية عادت إلى حالتها، ولونها مثل لون سائر بدنه.

شلت آيات الله تعالى الفرعون وملأه عن التفكير لبرهة من الزمان خالوها كالدهر الطويل، وقطعت عليهم كل طريق من طرق الجدل والمراءاة، وسدت في وجوههم أبواب الأخذ والرد، وأخيراً وضعتهم أمام خيارين لا ثالث لهما كلاهما صعب ومر كالحنظل، فأما الاعتراف بصدق موسى ودعوته، أو تكذيبه وإنكار دعوته ورفض رسالته، وسواء صدّقوا أو كذبوا، فهناك واقع جديد تمخضت عنه هذه البينات يستحيل إنكاره أو تجاوزه، وهو التسليم لموسى بقوة حجته، أي التسليم له بأنه على الحق المحض. ولكنه بالضرورة تسليم العاجز المكابر الذي يرى الحق أمامه صريحاً لا تشوبه شائبة فيحيد عنه متعللاً بمسوغات واهية ومتهافتة، كقولهم:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

---

(١) سورة يونس: الآية ٧٦.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٦.

أو ما قالوه لموسى عليه السلام كالمعترفين صراحة بهزيمتهم، ولكن رغماً عن ذلك يتمسكون بما ألفوه ووجدوا أنفسهم عليه، ولو أدى هذا الاستمساك بهم إلى رفض الحق وإنكاره:

﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وموسى من جانبه لما شعر بأن الملأ قد حجوا وبهتوا وضاقت عليهم السبل في دفع آيات الله، وتيقنوا أنه الحق، رد عليهم رد من أيقن هو الآخر أنهم عرفوا ولكنهم لن يعترفوا فقال لهم:

﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

وقال أيضاً:

﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾[3].

وتنحصر ردود موسى عليه السلام في أن الله تعالى أعلم منهم بحال من أعده للصلاح الأعظم، حيث اختاره وجعله نبياً ورسولاً وبعثه بالهدى ووعده حسن العاقبة، يقصد ذلك نفسه، ولو كان كما في زعمهم ساحراً وكاذباً مفترياً لما اختاره الله لهذه الرسالة، لأن الله غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبىء السحرة، ولا يفلح عنده الظالمين والسحرة.

تأكد للفرعون وملأه رجحان كفة موسى على أقل تقدير في ميدان السحر، وباتوا على قناعة كاملة بأنهم يجابهون الآن بساحر عظيم أظهر لهم ما لا عهد لهم بمثله، وعالم ماهر بلغ في سحره حد

---

(١) سورة يونس: الآية ٧٨.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٧.

(٣) سورة يونس: الآية ٧٧.

الإعجاز، ولا وجه للمقارنة بينه وبين من يسحرونهم ويخدعونهم بحيل تنطلي دوماً على السذج والبسطاء، وهو يسعى من وراء سحره لغاية واحدة، تداولها الملأ من قوم فرعون فيما بينهم كحقيقة واقعة، وصرحوا بها للفرعون كمهدد أمني خطير، وهي التي حكاها الله على لسان الفرعون وعلى لسانهم في قوله:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[(١)].

أما كيف خلصوا إلى هذه الحقيقة الغريبة وإلى ذلك الاستنتاج الفريد عن رغبة موسى في إخراجهم من بلادهم، وعلى أي واقعة من الوقائع استندوا ليبنوا عليها رأيهم ومشورتهم للفرعون، فأمر لا يمكن القطع فيه، وذلك لبعده عن جوهر رسالة موسى عليه السلام، ولكن الملأ من القوم ومعهم فرعون نفسه فيما يبدو قد خلصوا مدفوعين بعامل القهر والخوف من موسى وسحره إلى أحد شيئين:

ـ إما أن موسى ما أظهر إخراج بني إسرائيل إلا ذريعة لإخراج كل من يؤمن به ليتخذهم له تبعاً، ويقيم بهم ملكاً خارج بلادهم، فهي إذن مكيدة منه لأحداث شرخ في ملك الفرعون.

ـ وإما أنه إذا شاع في الأمة ظهور حجة موسى وعجز الفرعون وملأه أدخل ذلك فتنة في العامة، فآمنوا بموسى وغدا هو الملك على بلادهم، وأخرج فرعون وملأه منها[(٢)].

وعلى الرغم من كل هذه المخاوف والظنون التي تكشفت للحاضرين، فقد أثبت فرعون والملأ من قومه للعالمين رجاحة عقولهم وحسن تقديرهم للأمور، حيث أنصفوا موسى فاتفقوا فيما بينهم على امتحانه واختباره بجنس ما برع فيه، أي مبادلته سحره بسحر مثله، فقالوا كالمشيرين للفرعون:

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٣٤، ٣٥.

(٢) تفسير عاشور ج (٩) ص ٤٥.

﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾[1].

فأسلم طريقة إذن للحيلولة بين موسى وتحقيق أهدافه هي مجابهته بمثل ما جاء به، وذلك يتطلب بالضرورة الإرجاء والتأخير، ولا داعي للعجلة والتعجل في الحكم وإصدار قرار متسرع لا تحمد عقباه، حتى يتم استدعاء من يضاهي موسى في العلم والمهارة بالسحر، أو من يتفوق عليه من سائر البلاد.

وبلا أدنى شك فقد أدرك الملأ من قوم فرعون إدراكاً عميقاً أن دعوة كدعوة موسى مؤيدة بالمعجزة الخارقة لعوائد الناس ستنتشر بين الناس بسرعة فيكثر المؤمنين بها، ومحاولة سجنه قد تؤكد للناس سلامة دعوته وصحة رسالته، فيكون ذلك ذريعة للشك في ألوهية الفرعون وفي دينهم، وهم من جهتهم قد طمعوا في العثور - أثناء فترة الإرجاء والإمهال - على سحرة يعارضون موسى بسحرهم فتتم لهم الغلبة الظاهرة التي تئد الدعوة في مهدها.

وما استقر عليه الرأي، وتمخضت عنه المداولات حكاه الفرعون بنصه لموسى، حيث قال:

﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾[2].

وخلاصة إجماع القوم لا يختلف في شيء عما دار بينهم بخصوص موسى وسحره، فعودته المفاجئة للبلاد بعد طول غيبة الغرض منها إيهام الناس بأنه جاءهم بآية توجب اتباعه والإيمان به، فتتم له الغلبة والسيادة عليهم، أو يتبعوه فيخرجهم من ديارهم وأوطانهم، مما يحتم مجابهة فكرته ومنازلته بسلاحه، حتى يسلم الجميع بكذب دعواه وبطلان رسالته، وبناء على تلك الحيثيات فليحدد

(١) سورة الأعراف: الآيات ١١١ - ١١٢.

(٢) سورة طه: الآيات ٥٧ - ٥٨.

لهم موسى بنفسه يوماً لا يتأخرون عنه لا هم ولا هو، ومكاناً مكشوفاً مستوياً، ليشهد الناس أعمال موسى وأعمال السحرة بلا حاجب أو ستار.

إن ثقة الفرعون بمقدرة سحرتهم في التغلب والانتصار، هي التي أوعزت إليه بإتاحة الفرصة لموسى ليختار ما يشاء من الأيام، وبقيد واحد فقط هو أن يختار من الأمكنة مكاناً مكشوفاً ومستوياً، ولو لم يكن ضامناً للنصر، وقابضاً بكلتا يديه على نتيجة المنازلة، لما أفسح لموسى مجالاً واسعاً يتحرك فيه بكل حرية.

وموسى عليه السلام بحكم نشأته بين الفراعنة من أدرى الناس وأخبرهم بمناسبات الحياة التي يتجمهرون فيها، ومواسم أفراحهم وأعيادهم ذات الطابع الشعبي، وبلا تردد حدد زمان ومكان اللقاء المرتقب وكأنه قد أعده مسبقاً، فقال له:

﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[1].

إن لاختيار موسى عليه السلام ليوم الزينة بالتحديد مغزى كبير، وذلك لأنه كان مناسبة قومية أو يوم وطني أكثر منه عيد تحتفل به الأمة بأسرها وعلى مختلف طبقاتها، ويحتفل فيه في رقعة مستوية من الأرض، وخالية تماماً من كل ما يعرقل أفراح الناس، ولعله كان يجري في ساحة من الساحات التي أعدت خصيصاً في العاصمة للمناسبات والأعياد العامة، حيث تزدان بالأعلام والرايات وتفرش الأرض بالأبسطة، ويرتدي له الأهالي أفخر ملابسهم، ويشارك فيه الفرعون وآل بيته كعادة الحكام في كل زمان ومكان في مثل هذه المناسبات القومية.

ولا ينطبق يوم الزينة هذا على مناسبة أو عيد أو يوم من أيامهم

(١) سورة طه: الآية ٥٩.

البهيجة انطباقه على مهرجان (اتحاد الأرضين) (سمت تاوي)، حيث اعتاد القوم على الاحتفال فيه بتوحيد شطري القطر الصعيد والدلتا في دولة واحدة على يد الفرعون مينا، وذلك مرة واحدة كل عام، يتقاطر فيه الناس من أطراف البلاد المختلفة في صعيد واحد، ويبتهجون بوحدة دولتهم وأرضهم، وتكتسي عاصمة البلاد يومئذ بأبهى حلل الجمال، ويشاركهم الفرعون بوصفه رئيساً على القطرين، فتكتمل البهجة ويعم السرور.

فموسى إذن قد تعمد اختيار مناسبة قومية ومهرجان كبير تعين وقت الاحتفال فيه بدقة، وحدد مكانه حتى غدا من البديهيات، وسمى زماناً ومكاناً بيوم الزينة، تأتيه وفود المشاركين من كافة مقاطعات البلاد، وقيد وقت الاحتفال فيه تقييداً مطلقاً بالضحى، أي أول النهار، حيث يشتد الضياء ويقوى، فإذا امتدت الأفراح وطالت يكون لهم في النهار متسع، ولذلك اختاره موسى كأفضل يوم تعلى فيه كلمة الله، ويظهر فيه الحق ويكبت الباطل «على رؤوس الأشهاد، وفي الجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر الحديث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر»[(١)].

يوم الزينة:

بادر الفرعون وفور انقضاء ذلك المجلس بالاستعداد لهذا اليوم الفاصل، فأرسل يستدعي على جناح السرعة كل من اشتهر بالسحر وعلم السحر من أقاليم البلاد المختلفة، وفي الوقت ذاته تحركت أجهزة الدولة لحث وفود المقاطعات للمشاركة في يوم الزينة واستعجالهم للقدوم على وجه السرعة قائلين لهم:

---

(١) تفسير الزمخشري ج (٣) ص ٧١.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾[1].

وهم بكلامهم هذا أرادوا استنفار الأمة قاطبة لتأييد السلطة في رفض وإنكار دعوة موسى وعدم اتباعه، لاتباع السحرة كأئمة للناس، إذ المتبوع وحده هو الفرعون، وهم كمسؤولين عن تنفيذ سياسة الدولة وحريصون على سلامة أمنها، واثقون من غلبة السحرة، مطمئنين إلى دحر موسى وسحره.

وجاء من السحرة العليمين ببواطن السحر الضليعين فيه عدد يتراوح ـ كما يقول بن الأثير ـ ما بين سبعين واثنين وسبعين[2]، اصطفى من بينهم اثني عشر يعدون بين السحرة من الرؤساء الذين يعول عليهم في هذا التحدي الخطير، وعليهم تتوقف سلامة الدولة وألوهية الفرعون، فلما مثلوا بين يدي الفرعون، حاملين معهم أدوات سحرهم من الحبال والعصي، وأحسوا شدة حرصه على الغلبة وبأي ثمن، وهم بخبرتهم العلمية والعملية قابضون على ناصية الغلبة، خافوا أن يسخروا بدون مقابل، فاشترطوا عليه الأجر قبل الإقدام على العمل، ليلزموه بما يعدهم بهُ. فقالوا له:

﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[3].

فأجابهم:

﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[4].

وبذلك يكون جواب الفرعون على شرطهم بنعم تقرير بما أخبروا به عنه، وزادهم على ما طلبوا من المثوبة المادية المثوبة المعنوية، بأن يحلهم عنده محل المقربين من شخصه المعظمين عنده، وممن يتبوأ

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٤٠.

(٢) الكامل في التاريخ جـ (١) ابن الأثير ص ١٨٢.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٤١.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٤٢.

في البلاط والدولة والمجتمع المنازل الرفيعة، وكل موعود بأجر مالي يتهنأ ويغتبط إذا نال معه الكرامة والرفعة.

وفي ضحى يوم الزينة احتشد القوم في الساحة العامة للعاصمة وأبصارهم مركزة على رقعة متسعة من الأرض أعدت خصيصاً للّحظات الفاصلة، ووقف عليها السحرة الاثنى عشر وموسى وشقيقه هارون، ثم دخل الفرعون الساحة راكباً عربة أبيه المشهورة في التاريخ باسم عربة رع مس سو يرافقه آل بيته وأمراء البلاط وكبار رجالات الدولة، ولما استقر المقام بالفرعون على كرسيه ورفع أصبعه إيذاناً ببدء المعركة الحاسمة، تقدم موسى نحو السحرة زاجراً لهم على تعاطيهم السحر الباطل لمعارضة آيات الله وبراهينه الدامغة، فقال لهم بحدة وعنف:

﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾[1].

إن موسى عليه السلام حينما رأى علية القوم وعقلاءهم وخيارهم علماً وأخلاقاً يقدمون على عمل سيوردهم موارد الهلاك، وتأكد له أن إلانة الحديث معهم وهم في حضرة الفرعون عديمة الجدوى أغلظ لهم في القول والنصيحة حتى يرعووا فلا يختلقون الكذب، ولا يقفون في طريق الدعوة فيكون مصيرهم البوار والخسران المبين.

تركت حدة موسى مع السحرة في القول، وغلظته في الموعظة آثاراً حميدة في نفوسهم، فانتحوا جانباً في حركة تشي بترددهم وخوفهم من الخذلان بمرأى من الحشد الهائل للتشاور فيما بينهم، مبالغة في السرية وإمعاناً في الكتمان، ليصدروا عن رأي لا يطلع عليه أحداً غيرهم، وأياً ما كانت الآراء والأفكار التي تبودلت فيما بينهم، فقد خلصوا إلى ما يشبه الإجماع بالمضي قدماً في تحدي موسى ومنازلته مهما كانت النتائج، ولعل القول الذي رواه الحق عز وجل

(١) سورة طه: الآية ٦١.

على لسانهم هو الذي حسم أمر التنازع فيما بينهم، فيقول تعالى حاكياً عنهم:

﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾[1].

لقد تنبه السحرة إلى أن المعركة التي سوف يخوضون غمارها بعد قليل ليست معركة شخصية، وإنما هي معركة فاصلة بين الأمة بأسرها وبين موسى عليه السلام، إذا هزموا فيها ذهبت مكتسبات أمتهم أدراج الرياح، ولذلك يجب عليهم الوقوف صفاً واحداً غير مختلطين ولا متنازعين، لدحر موسى، فيظهروا للأمة التي ترصد حركتهم الآن بعين حذرة، أن ما جاء به موسى من سحر لهم هم أيضاً ما هو أشد منه وأمضى، وبذلك ينصرف الناس عن دعوته ويزهدوا في رسالته، والفوز والبقاء الدائم اليوم لمن غلب وظهر وسط هذا الحشد الكبير.

اصطف السحرة الاثنى عشر في جانب ووقف موسى وهارون عليهما السلام في مواجهتهم، وكما يفعل الخصمان المتصارعان كل منهما بإزاء غريمه، أبدى السحرة من التواضع وحسن الأدب ولين الخطاب ما يعكس رغبتهم في العدل والإنصاف مع خصمهم، فقالوا لموسى:

﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[2].

وعلى الرغم من أن ظاهر قول السحرة يدل على إفساحهم المجال لموسى كي يختار بين هذين الأمرين، إظهاراً لفنهم وقدرتهم على التغلب، وتهويل شأنهم في نفسه، إلا أن ما بطن من قولهم يكشف عن رغبتهم في أن يلقوا قبله، فقد دلتهم التجارب أن المباداة

---

(١) سورة طه: الآيات ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) سورة طه: الآية ٦٥.

في صنعة مثل صنعتهم قائمة على التخيلات والشعوذة أنجح واستقرارها في النفس أشد مما يليها.

فطن موسى عليه السلام ومن الوهلة إلى ما تنطوي عليه مبادرتهم من مكر وخبث، فقابل أدبهم بأدب مثله، فقال لهم وبمنتهى الكياسة:

﴿بَلْ أَلْقُوا﴾[1].

وذلك لأن السحرة خيروه بين أن يتقدمهم في الإلقاء أو يتقدمونه هم، فاختار أن يتقدموا هم بالإلقاء حتى يظهروا ما عندهم من سحر، وليستنفدوا أقصى جهدهم في الحيل، ولكن ما لم يتنبهوا إليه هو أنه بتنازله لهم قد أضمر لهم الازدراء وقلة المبالاة، وبلغ من استخفافه بهم حداً مكنهم عن رغبة منه في المباداة، فإذا غلبهم تكون الغلبة أشد والهزيمة ساحقة، ومن ثم تنقطع المعذرة ويدمغ الباطل، وتتسلط المعجزة على السحر فتمحقه، وتظهر آية الله تعالى نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين.

وامتثالاً لرغبة موسى طرح السحرة ما في أيديهم من عصى وحبال وهم يقسمون بعزة الفرعون على أنهم الغالبون، ثقة منهم في إرادة الفرعون الإله المتأله والتي لا تغلب ولا تقهر، وبما أن الذي حدث هو سحر محض، فقد وصف الله تعالى ما رآه الجمع لحظة اصطدام العصى والحبال بالأرض وتحركها جيئة وذهاباً بقوله:

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[2].

في دلالة ساطعة على أن كل ما فعله السحرة في أعين الناس أنهم حولوها عن إدراكها الطبيعي بتخيلات مرئية وصلت إلى العقل بالهيئة التي أدركوها بها، فتوهموا وكأنهم أمام حقائق لا تدحض

---

(١) سورة طه: الآية ٦٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١١٦.

وعززوا تلك التخيلات بحركات أخرى تثير خوف الناظرين لتزداد التخيلات تمكناً في القلوب والعقول، إمعاناً في إيهام الأعين بصدق ما يرونه أمامهم كالصياح والتهويل والتهديد وغيرها من تمويهات وخزعبلات السحرة.

وحدث لموسى عليه السلام ما حدث للناس من حوله، فقد خيل إليه أن في الأرض حيات تسير وتغدو، أي تشبه له من قوة تأثير السحر أن الحبال والعصى تمشي حقيقة لا خيالاً، فأحس في داخل نفسه بما يجده الخائف، ولم يظهر أثره على ملامح وجهه، وخوفه بلا شك خوف جبلي فطري مرده إلى ظهور أمر السحرة ظهوراً يساوي ما يظهر على يديه من انقلاب عصاه ثعباناً مبيناً، فيكون قد ساوهم من سحرهم وفاقوه بالكثرة العددية، أو ربما نتج من افتتان الناس بالسحرة قبل إلقاءه عصاه فلا يصدقه أحد، ومن ثم لا يجد من يقبله، وعلى ذلك فخوفه محصور فقط في ظهور أمر السحرة ولبرهة وجيزة، وإلا فإن نفس الرسول وعقله لا تتأثر بأحابيل السحرة وفنونهم، ولأجل ذلك أوحى الله تعالى إليه قائلاً:

﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾[١].

أراد الله تعالى لموسى ألا يبالي أو يحفل بكثرة ما يرى، فهو الغالب الظافر بإذن الله، وليلق عصاه التي الآن في يمينه، وبمشيئة الله وقدرته سوف تبتلع وحدها عصيهم وحبالهم على كثرتها وذلك لأنها من قبيل التزوير والاحتفال، والمزور والمفتعل لا يظفر ببغيته ولا يحظى بالفوز من مسعاه أبداً، فسرعان ما تنكشف حقيقته بالتأمل وثبات النفس.

---

(١) سورة طه: الآيات ٦٨ ـ ٦٩.

ولما انزاح عن موسى ما أضمره من خوف، وزال عن نفسه ما كان يحسه من اضطراب داخلي، أجمل معاني وحي الله تعالى له في كلمات غاية في القوة والشدة، فتوجه للسحرة قائلاً:

﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

بعد ذلك أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يلقي عصاه في الأرض، فطرحها موسى كما أُمر، وإذا بالحياة تدب فيها وتنقلب ثعباناً عظيماً، يسير ويغدو كالثعابين حقيقة لا خيالاً، ثم أقبل على حبال السحرة وعصيهم وهي كالحيات والأفاعي في أعين الناس فجعل يتناولها واحدة إثر الأخرى بحذق ومهارة ويبتلعها بخفة وسرعة، والجمع الحاشد ينظر إلى عمله مأخوذين ومبهورين من قدرته وخفته في الازدراد، حتى لم يبق منها شيئاً، حينئذ مد موسى يده إلى الثعبان، فإذا هو بيده عصا كما كانت عليه من قبل.

ولأول مرة يشاهد السحرة شيئاً بعيداً عن أعمال السحر وفوق طاقة الساحر، لحظتئذ تحققوا عن معايشة يدعمها علم وخبرة بأن هذا ليس خيال ولا افتعال، بل حق صريح ومعجزة خارقة، وهذا عين القهر والغلبة، ونتيجة لذلك تحولوا إلى حالة غريبة أحسوا فيها بالهوان والضعة والصغار، لا لقصورهم عن مجاراة موسى أو خيبة أملهم من حرمانهم من الأجر والقرب من الفرعون، بل لتماديهم في الباطل، وإصرارهم على تحدي موسى، وإعانتهم للفرعون على ظلمه ومتابعته في إفكه، فأيقنوا أن موسى مؤيد من الله، وما دعاهم إليه هو الحق من عند الله، فانزاحت عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وقسوة الكفر والباطل، ولم يتمالكوا ساعتها من أن يخروا لله ساجدين في خشوع وذلة، وهم يقولون على مسمع من العاهل الفرعوني وملأه:

---

(١) سورة يونس: الآية ٨١.

﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[١].

إن اقتران سجود السحرة بقولهم السابق بمثابة إعلام منهم على إيمانهم بالله لئلا يتوهم متوهم أن سجودهم للفرعون، ولأجل ذلك وصفوه: برب العالمين، تماماً كما دعا إليه موسى، وخصوا موسى وهارون بالذكر بعد إيمانهم لأنهم الذين دعوا إلى الإيمان بالله، ومدحاً وتعظيماً لهما.

تحير الفرعون فيما يفعل، فهو الذي قبل التحدي وفتح باختياره ورضاه باباً واسعاً للمنازلة، وجاءت النتيجة على النقيض من توقعاته، ومخيبة لآماله، ولكنه اغتاظ بصفة خاصة من إيمان السحرة المفاجىء ورام عقابهم في التو واللحظة، ولم يحول بينه وبينهم إلا إدراكه بأن العقاب في هذه اللحظات يعد نكثاً وخرقاً لأصول المنازلة والمنافسة التي أقر وسلم بها مسبقاً، لذلك اصطنع طريقاً آخراً للتشفي منهم فبادرهم القول مستفهماً:

﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[٢].

إن استفهام الفرعون الإنكاري ينطوي على التوبيخ والتهديد وذلك لجراءتهم الزائدة عن الحد والإقدام على سلوك هذا المسلك الشنيع دون إباحة لهم منه أو مشاورته وأخذ رأيه، ولو استأذنوه لأذن لهم، الأمر الذي جعله يظن من سرعتهم في الإيمان والسجود تواطؤهم مع موسى، ومن ثم اتهمهم بالتآمر معه، ولأجل ذلك أظهروا العجز عن مجاراته في سحره، فاستطرد قائلاً:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

فالوقائع إذن برمتها هي مكيدة دبرت بليل، وحيلة احتالوها هم وموسى لكونه أعلمهم بالسحر وأعلاهم درجة فيه، بل هو معلمهم

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٢١ ـ ١٢٢.

(٢)(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٣.

وكبيرهم الذي علمهم السحر، ويهدفون من وراء هذا كله إخراجهم من ديارهم وإحلال بني إسرائيل محلهم، ومن ثم لجأ بعدها إلى التهديد المباشر فقال متوعداً السحرة:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[1].

فجزاء العاهل الفرعوني إذن على إيمان السحرة أنه سيأمر أتباعه بتقطيع أيديهم وأرجلهم كالمجرمين، فتقطع من كل ساحر يداً ورجلاً متخالفتي الجهة غير متقابلتين، أي قطع يده اليمنى وقطع رجله اليسرى والعكس، ثم يربط الجسم المقطوع وهو ينزف دماً فوق جذوع النخل إمعاناً في شدة التنكيل، ليعلم السحرة وغيرهم أياً منهم أشد عذاباً مما حذروا وخوفوا منه، هو أم موسى وربه.

استقبل السحرة وعيد الفرعون وتهديداته بمنتهى الهدوء والثبات، ورداً على تهويلاته بالتقطيع والصلب قالوا له:

﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾[2].

وقالوا له أيضاً:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾[3].

ومعنى ردهم عليه أنه ليس ثمة ضرر يلحق بهم، إذ هم لا يبالون بالموت، طالما هم صائرون إلى لقاء الله تعالى، وخلاصاً منه ومن لقائه، بل هم الآن أكثر تشوقاً من ذي قبل إلى لقاء الله، وذلك لأن الله لما هداهم إلى الإيمان وهبهم محبة لقائه، وإنكار الفرعون

---

(١) سورة طه: الآية ٧١.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ٥٠ ـ ٥١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٦.

لإيمانهم واعتباره عيباً منهم، وتوعده وتهديده بصب أشد أنواع العذاب عليهم فلا غضاضة فيه، فهو أصلاً لم يكن عن جناية، بل على تصديقهم بآيات ربهم لما ظهرت لهم.

وهذا أن دل على شيء إنما يدل على قوة إيمانهم وعمق يقينهم وشدة ثباتهم على الحق، ضاربين عرض الحائط بكل وعيد، فقد رأوا في كل ما ينزله بهم الفرعون أعظم النفع لتكفير الخطايا، والمغفرة من الذنوب، ورجاء رحمته ونوال ثوابه العظيم، وذلك لأنهم أول من آمن من رعايا الفرعون، وأول المؤمنين ممن شهدوا المعجزة الباهرة في هذا اليوم المجموع له الناس، ولأجل هذا أبدوا ضروباً من الاستخفاف بالفرعون والاستهانة بما سيؤول إليهم حالهم على يديه ما لم يعهد مثله من قبل، تمثل هذا في قولهم له:

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾[1].

فالسحرة بعد أن انقلبوا برحمة الله من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان لن يختاروا ويفضلوا طاعة الفرعون ودينه على ما جاءهم من العلم اليقيني، فيصنع بهم ما هو صانع، وليقضي بما هو قاض، فكل ذلك من متاع الدنيا الزائل، وهم بإيمانهم يطمعون في أن يتولاهم الله ويتجاوز عن سيئاتهم وما أكرههم عليه من تحدي موسى بسحرهم.

عقب ذلك توجهوا إلى الله تعالى بالدعاء قائلين:

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[2].

معناه هب لنا صبراً واسعاً يفيض علينا ويغمرنا كما تغمر الماء الأرض، وامنحنا القوة والطاعة على تحمل الآلام والقطع والصلب على جذوع النخل، ثم توفنا على الإيمان والإسلام.

---

(١) سورة طه: الآيتان ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢٦.

ومهما يكن من أمر فإن الملأ من قوم فرعون دون غيرهم هم أول من تنبه إلى النذر الخطيرة والشر المستطير الذي تحمله هذه الأحداث في طياتها، وزاد منه الاستهتار البالغ الحد الذي واجه به المؤمنون شخصية الفرعون ووعيده وغضبه كأنه شيء لا يعنيهم، وإن الهزيمة التي ألحقت بهم قد تفتح الباب عن مصراعيه للإيمان بالدعوة. عندئذ اتجهوا للفرعون مباشرة والوقائع لا زالت ماثلة للعيان بغية إشعال نيران الغيرة في قلبه وإيقاظ همته وحميته لاتخاذ إجراءات غاية في الشدة والصرامة لدرء الخطر المحدق بالبلاد، فخاطبوه مستفهمين:

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾[1].

إن استفهام القوم هو بلا شك بمثابة إغراء للفرعون على إهلاك موسى وقومه، وإنكار منهم على إبطائه وتردده مع أناس يعملون جاهدين على إبطال ديانتهم وديانته، وآلهتهم وآلهته، وما يترتب على ذلك من تقويض لأسس ودعائم مجتمعهم، وتفرق كلمتهم، وزوال دولتهم.

والفرعون من جهته وبعدما صور له من الكوارث المقبلة والمصائب التي سوف تحط بكلكلها عليهم جميعاً، وما أشاعته معجزات موسى في نفسه من خوف وجزع على مستقبل وجودهم رد عليهم كالمعتذر على إبطائه بما سوف يأمر به من أعمال حيث قال:

﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[2].

موقف مؤمن آل فرعون:

يعد يوم الزينة من الأيام الفاصلة في تاريخ الصراع بين الحق والباطل، وفيه زالت الغشاوة عن أعين الكثير من الناس، وتبددت

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢٧.

شكوك العقلاء والعارفين حول ما أشيع عن موسى ودعوته، واتضحت في غمضة عين الفروق الشاسعة بين السحر والمعجزة الإلهية، ولكن موقف الفرعون الحاسم من إيمان السحرة وإطلاقه التهديدات ذات اليمين وذات الشمال وبصورة لا تتفق ولا تنسجم مع جلال الموقف، أجبر الكثير ممن مال إلى تصديق موسى في دعواه، واقتنع بحججه وبراهينه المؤيدة والمدعمة لدعواه إلى التريث والتمهل في انتظار ما تسفر عنه الأيام، وذلك لأن الإقدام على الإيمان وفي هذه اللحظات التي اشتعل فيها الفرعون غضباً قد ينجم عنه أوخم العواقب وأفدح النتائج، أهونها السجن، ويكفي ما حدث وسيحدث للسحرة كشاهد ودليل.

ولا نبعد عن الحقيقة ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن برامون أو سامون [مؤمن آل فرعون] كان ضمن الحضور في يوم الزينة، وجالساً بحكم منصبه الدستوري إلى جانب عمه مصعب بن الوليد، ويشاهد بعناية شديدة وتركيز دقيق ويرصد بعين خبيرة معركة الصراع فيها بين الحق والباطل، بل كان أيضاً معايشاً مع الفرعون وقائع مجابهة موسى للفرعون وجدالهما الطويل، وكيف حسمه موسى بالآية البينة والمعجزة الباهرة، عندئذ غُرست بذرة الإيمان في سويداء قلبه، إذ أدرك وقتها إدراكاً مؤسساً على ثقافة دينية رفيعة، الفرق بين السحر كعلم وصنعة التضلع فيها مفتوح كسائر العلوم والصناعات، وبين المعجزة الخارقة للعوائد ومألوف العقل، والتي لا تتاح إلا لنبي أو رسول من عند الله.

وفي يوم الزينة رأى ما لم يره يوم المواجهة فأيقن يقيناً لا يتطرق إليه الشك بأن موسى مبعوث من عند الله برسالة لخاصة قومه، ولمن أراد الإيمان بالله ورسوله من قوم فرعون، وبرهانه الساطع آمن بها أدرى الناس بالسحر وعلومه وأكثرهم تضلعاً فيه، فاستقر الإيمان في قلبه، وانشرح صدره لقبول الحق، ونطق لسانه بشهادة أن لا إله إلا الله، وبموسى رسولاً ونبياً، ولكنه ككل الناس يومئذ كتم إيمانه واحتفظ به في دخيلة نفسه فلم يصرح به لأحد من الخلق، وذلك لأن

إظهار إيمانه يضره ولا ينفع غيره، ومن ثم آثر التزام الصمت والتريث مترقباً ما تتمخض عنه الأيام المقبلة، أو على وجه أدق في انتظار رأي الفرعون النهائي.

وعلم الله تعالى بإيمان الرجل وإخلاصه وطمأنينة قلبه فخصه بالذكر دون غيره ممن ظهرت لهم علائم الحق، وتبين لهم صدق موسى، ولكنهم رهنوا إيمانهم وتصديقهم بإيمان وتصديق الفرعون فوصفه تعالى بقوله: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾[1]، ثم حل الوصف منه محل الاسم فسماه الناس: مؤمن آل فرعون.

وعلى أي حال فقد تعرضت الذات الفرعونية في يوم الزينة وعلى مرأى من القوم إلى مواقف فقدت فيها هيبتها ووقارها وسلطانها على النفوس، وبشكل صارخ وعنيف، وأبدت من مظاهر العجز والقصور ما أحدث هزة عميقة في نفوس اتباعه كثرت من جرائها الأقاويل حول قضايا ظلت مصونة ومقدسة لا تناقش ولا يجوز الخوض فيها أبرزها ذات الفرعون المؤلهة والمتألهة.

كما أعادت أحداث ووقائع اليوم إلى الأذهان مخاوف رع مس سو وتوجساته، وكيف سعى باذلاً قصارى جهده للقضاء على ما كان يعد في أيامه من مهددات الذات الفرعونية والمجتمع الفرعوني وهو نفس ما يواجهه ابنه فعلياً اليوم مع الفارق الكبير بين المهددين، وفي الوقت ذاته كشفت الأحداث مدى صحة وسلامة الإجراءات التي اتخذه والده في حق بني إسرائيل، الشيء الذي دفعه للدعوة إلى اجتماع عاجل وعلى أعلى المستويات بحيث يضم الوزراء من أمراء البلاط ومستشاريه الخصوصيين وقادة الجيش والشرطة وكبار الأعيان لمناقشة تلك المهددات ووضع الترتيبات اللازمة للقضاء عليها حسماً للأقاويل والأراجيف، وحفاظاً على بينة الدولة والمجتمع.

---

(١) سورة غافر: الآية ٢٨.

واتضح من مناقشات الملأ من قوم فرعون ومداولاتهم التي رواها الله تعالى في القرآن، أن قناعة واحدة ترسبت في أعماق الجميع، وتعتبر نتاجاً طبيعياً لموقف الفرعون يوم الزينة، يقويها ويؤديها الإجراءات التي اتخذها رع مس سو، وأثبتت الأيام فاعليتها وتأثيرها، ألا وهي ضرورة التصدي لبني إسرائيل أولاً، ولموسى ثانياً بوصفه كبير القوم وعظيمهم، كمهددين جوهريين للأُمة، ولأجل ذلك كان أول اقتراح طرح بحضرة الفرعون هو ضرورة وقف نمو الأقلية الإسرائيلية في المجتمع، فيقول تعالى حاكياً على لسانهم:

﴿اقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ﴾[1].

وذلك حتى يقل عددهم فلا يتقوى بهم موسى، ولئلا ينشأ جيل جديد على دينه، أما الأحياء منهم فمقدور عليهم، وسلطة الدولة نافذة فيهم، ويمكن بين عشية وضحاها إغراقهم في دوامة من الاضطهاد والعذاب تنسيهم وعود موسى لهم، وتقضي على أحلامهم في العودة إلى الأرض المقدسة بصحبة موسى أو بدونه.

أما الفرعون فبعد ليال مضنية قضاها وحيداً يتأمل في أحداث اليوم، ويستعيد في ذاكرته مخاوف والده القديمة، ويلقي نظرات متشائمة على المستقبل انتهى إلى رأي مخالف لرأي الملأ من قومه، عبر عنه رداً على اقتراحهم فقال:

﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[2].

الأجدر إذن في رأي الفرعون قتل موسى لا قومه ولا الذين آمنوا معه، لأن قتله يئد الفتنة في مهدها، ويقطع دابر كبير القوم بمعجزاته، وعبارة ذروني إعلام منه بعزمه على القتل، وتتضمن أيضاً خطورة

---

(١) سورة غافر: الآية ٢٥

(٢) سورة غافر: الآية ٢٦.

الإقدام عليه بل وصعوبة تحقيقه لاستيقانه بصدق موسى، فخاف إن هو هم بقتله أن يعاجله رب موسى بالهلاك، أو يظهر معجزة تمنعه فيزيد الطين بلة، فكأنه يموه على الملأ إيهاماً بأنهم هم الذين يكفونه عن القتل في حين توحى العبارة عما في نفسه من خوف وجزع.

ثم بين المسوغ له على الإقدام على هذا الفعل الخطير وهو خوفه من انتشار دعوته بين الناس انتشاراً يحدوهم إلى تغيير دينهم وعقيدتهم، ويستتبع ذلك بالضرورة تغيير وتبديل في شريعتهم وتقاليدهم وعوائدهم، وكل ذلك فساد في الدين ويؤدي إلى فساد الدنيا فتطفو على سطح الحياة الفتن والخصومات والقلاقل، فتضطرب أحوال الناس وتتعطل معايشهم وتشيع الفوضى[1].

وعندما أُذن لمؤمن آل فرعون بالكلام لإبداء رأيه، لم يعقب على اقتراح الملأ من القوم لعلمه بأن عزم الفرعون وإصراره على قتل موسى قد أسقطه من مداولات المجلس، فوجه حديثه مباشرة للفرعون قائلاً:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾[2].

من الواضح أن الرجل المؤمن بدأ حديثه مستنكراً على الجميع وبشكل أقرب إلى التوبيخ مجرد التفكير في ارتكاب مثل هذا الجرم

---

(١) يروى أن موسى عليه السلام لما بلغه تهديد الفرعون في هذا الاجتماع خاطب قومه مطمئناً لهم ومسكناً لمخاوفهم من بطشه حيث قال كما حكى الله عنه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ سورة غافر: الآية ٢٧.

(٢) سورة غافر: الآيات ٢٨ ـ ٢٩.

القبيح، وهو قتل النفس الإنسانية بلا علة وسبب معقول اللهم إلا نطقه بشهادة أن لا إله إلا الله، ومن غير رؤية وإمعان نظر، وهو الذي لم يكرههم على الإيمان، بل خيرهم بين القبول والرفض، إذ هم من كل الأحوال ليسوا معنيين بالدعوة.

ثم ارتقى بهم في عرض وجهة نظره إلى التصريح الضمني بصدق موسى عليه السلام، وذلك من خلال مشاهدتهم هم بأنفسهم إلى آياته ومعجزاته وحججه الدامغة على كونه مبعوثاً من عند الله، ومؤيداً بتأييد من عنده، لا يماري فيه من وهب أدنى حظ من العقل السليم والتفكير الناضج.

وكر الرجل المؤمن عائداً في سياق عرض رأيه إلى ضرب من إيهام الشك في صدق موسى حتى لا يؤخذ عليه تصديقه وإيمانه، بل يخيل إليهم كونه في حالة نظر وتأمل، ليقود مستمعيه إلى صدق موسى وعلى نحو لا يثير نفورهم ولا يكشف مقصده، وهو احتمال كون كلام موسى مشتملاً على الصدق أو الكذب، وقدم احتمال كذبه على احتمال صدقه إمعاناً في التحوط وزيادة في إبعاد شبهة الانتصار لموسى عن نفسه، ليبدو في النهاية للفرعون وملأه وكأنه الغيور على مصالحهم الحريص على نفعهم.

إن الطريقة التي اتبعها الرجل المؤمن في درء الخطر عن موسى تقوم على تقسيم الحجة تقسيماً يعيد فيه القوم النظر في مجمل القضية، ولا يتعجلوا في موافقة الفرعون على عزمه، وفي الوقت نفسه يؤمنون بموسى ولا يتبعونه في دعوته، فإن تبين لهم كذب ما أنذرهم به من مصائب تنهال على رؤوسهم في حالة كفرهم، ولم يقع شيء منها، فحينئذ يعود وبال كذبه عليه، ولا يتجاوز ضرره سواه، وإن تبين صدقه اتبعوه فينالهم نصيب مما وعدهم به وأقله النجاة من الهلاك والعذاب، وحاصل التقسيم كما يفهم من مراده أنهم لا شيء يجبرهم إلى دفع شره بإهدار دمه، بل يكفي فقط منعه من أداء رسالته، فإذا

كان كاذباً يعود ضرره عليه وحده، وإذا كان صادقاً انتفع به الجميع.

ثم عقب على حجته تلك مؤكداً على أن الله تعالى لا يقر أحد أياً كان على الكذب، والكاذب لا يستقيم له أمر، أو تثبت له حجة، بل ما يلبث أن يخذله الله ويفضحه على افترائه وتقوله عليه بغير حق، ولو كان موسى فعلاً كاذباً لما جاءهم بما يؤديه في دعواه من البينات وخوارق العادات، وجرت سنة الله تعالى في خلقه ألا يخرق العادة ويتحدى بالبينات إلا ليجعلها إمارة على صدق رسوله، مما يعني صدق موسى في قوله ودعوته، وقد علا شأنه علواً لا يصل إليه إلا الأنبياء والمرسلين.

انتقل الرجل المؤمن بعد ذلك إلى تمحيص النصح لقومه ممن يستمعون إليه ولسائر الأمة، منادياً لهم جميعاً كي يصغي الحاضرون وترقق قلوبهم لقوله، مذكراً إياهم بنعم الله تعالى عليهم من علو في الأرض وسيادة عليها، وقوة ضاربة قهروا بها أعداءهم، وممهداً في الوقت نفسه إلى تخويفهم من غضب الله تعالى إن هم أفسدوا في الأرض، إذ لا قبل لهم بسخط الله وبأسه، ولا يقدر أحد على رده، ويومئذ تحل المصائب بالجميع، واستخدم ضمير المتكلمين في - ينصرنا، وجاءنا - ليريهم أنه يأبى لأمته ما يأباه لنفسه، وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه.

تنبه الفرعون في سياق حديث الرجل إلى أنه هو المقصود شخصياً بكل كلمة فاه بها، وقوله يحمل في طياته نبرة تنبي بتصديقه بموسى ودعوته، ولكنها مبطنة في عبارات ظاهرها النصح والموعظة الحسنة، فقاطعه بحدة موجهاً حديثه للجميع، واضعاً حداً نهائياً لأي مناقشة حول هذا الموضوع. فقال لهم:

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1].

(١) سورة غافر: الآية ٢٩.

قصد الفرعون بحدته وعباراته الحاسمة إلى ألا يترك لنصيحة الرجل الصائبة، ورأيه الرصين مدخلاً إلى نفوس الملأ فيتأثرون بها وينحازون إلى صفه، ومن ثم تتفق كلمتهم على نقيض ما عزم وأصر عليه، وبالتالي يذعن مكرهاً لإجماع القوم، الشيء الذي دفعه للخروج عن أدبيات الحوار فقطع على الرجل مجرى حديثه، وبكلمات بلغت الغاية من التعالي والتكبر، جاعلاً منهم جميعاً رائين لرأيه، ومعتقدين لاعتقاده، في رسالة صريحة لهم بأنه لا يستصوب إلا قتل موسى، إذ هو وحده الذي يرشدهم برأيه السليم إلى طريق الخير والصلاح، ولا يدخر وسعاً في نفعهم، فكأنه يلمح في كلامه إلى تفاهة وضحالة رأي الرجل المؤمن وسوء تقديره، وعدم تبصره بعواقب الأمور.

أوعزت مقاطعة الفرعون الجافة وحدة نبرته إلى الملأ من قومه بقفل باب المناقشة حول هذا الموضوع، وموافقته له في الرأي الذي هو في نظره رأيهم هم أيضاً، فاقتنع الرجل المؤمن من جهته بعقم معارضة الفرعون، وتأكد له انهيار حججه وأدلته بعرجفته واعتداده برأيه وفرضه رأياً للجميع، فعول على حملهم بقبول وجهة نظره بالتخويف والتهديد مستعيناً بسرد وقائع تاريخية معروفة ومتداولة في مجالسهم لأمم سابقة عليهم وقفوا نفس موقفهم من دعوة الرسل والأنبياء، وحل بهم من النكال، وببلادهم من الخراب ما سيحل بهم هم أيضاً، إن شايعوا الفرعون حتى النهاية فقال لهم:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ
وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن
يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا
زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ
بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

---

(١) سورة غافر: الآيات ٣١ ـ ٣٤.

اجتهد الرجل في تنبيه مستمعيه وتذكيرهم بمآل أقوام سبقوهم كانت تصدر عنهم أعمال يشتركون فيها بلا حياء حتى تحولت بكثرة تكرارها إلى عادة ملازمة وطبيعة ثانية، أبرزها الكفر برسلهم وتكذيبهم واقترافهم أعمالاً مشينة، مثل قوم نوح الذين كفروا بالله فاستأصلهم الله بالطوفان وقصتهم مشهورة، وقوم عاد وثمود الذين مع كفرهم ارتكبوا المعاصي جهاراً نهاراً فأهلكهم الله ودمر بلادهم، وكان عقابه لهم هائلاً وعظيماً تردد صداه في أغلب البلاد المعمورة يومئذ، ولأجل هذا فهو يخاف عليهم جزاءً عادلاً مثل جزاء هؤلاء أو أشد.

ومن تخويفهم بعقوبة الدنيا انتقل إلى إنذارهم بعذاب دائم قد يحل بهم يوم القيامة، واصفاً ذلك اليوم الرهيب بيوم التنادي ليذكرهم بأنهم سيقفون موقفاً ينادي فيه بعضهم بعضاً، مثلما يقف هو الآن بينهم يناديهم (بياقوم)، ناصحاً ومريداً خلاصهم من نداء يوم القيامة، حيث لا سامع ولا مسمع ولا مجيب.

ولما تراءى للرجل المؤمن على وجوه القوم إمارات الإنكار وشعر من حركاتهم التصميم على متابعة الفرعون في عناده وتصلبه، قفز من لين القول إلى اللوم والتقريع وفي نبرة مفعمة باليأس، ناعتاً لهم بأنهم من سلالة قوم كذبوا من قبل بيوسف عليه السلام على الرغم من بينات رسالته وأدلته على اصطفاء الله تعالى له نبياً وهادياً ومرشداً، فلم يقتفوا أثره ولا خطر على بالهم الاسترشاد به في حركاتهم الدنيوية، بل بقوا شاكين ومرتابين فيه، في حين حرصوا على الانتفاع به في تدبير شؤونهم الدنيوية فسلموه عن طيب خاطر أموالهم وخزائنهم وموارد بلادهم الاقتصادية.

وظلوا على هذه الحالة من الشك والارتياب في أمره، مع شعورهم بعظيم قدره إلى يوم وفاته عندها حكموا وبمنتهى الثقة واليقين قائلين، لن يبعث الله في المستقبل رسولاً من بعده، وهو حكم المعاندين المنكرين لأهل الخير والصلاح الذين لا يقرون بفضلهم إلا

بعد وفاتهم تندماً على فوات خير كانوا يدعونهم إليه، وحكمهم هذا من قبيل التمني ليكون أساساً في تكذيب من يأتي بعده من الرسل.

إن كلام القوم لا يفضي في واقع الأمر إلى إيمانهم بيوسف عليه السلام، بل هم قد توقفوا عنده وشكوا في رسالته ثم بنوا على شكهم استحالة إرسال نبي من بعده، ليخلصوا إلى يقين راسخ بأن من يدعي الرسالة بعد ذلك كاذب مدع ودجال، وهو أمر ينطبق على موسى أكثر من غيره، وكذلك يضل الله كل متجاوز للحد في عصيانه، مرتاب في الحق، شاك في بيناته الباهرة.

إن تعنت الفرعون وإصراره على رأيه قد أدى تلقائياً إلى قفل باب الحوار في وجه الجميع، وتركزت المواجهة بينه وبين الرجل المؤمن، فتجاهل عن قصد نصائحه وعظاته وإشارته إلى يوسف عليه السلام، وهو الذي لا يجادل أحداً منهم في الدور الذي أداه لبلادهم، وأقبل بكليته على مخاطبة الملأ من قومه، بادئاً بفكرة يعتقدونها عن حق ويقين، وهي ثبوت الألوهية له، فقال لهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[1].

يرمي الفرعون بقوله هذا إلى إحاطته علماً بكل شيء، وكونه لا يعلم إلهاً غيره معناه عدم وجود إله غيره يشاركه في صفة الألوهية، لأن العلم تابع للمعلوم ولا يتعلق به إلا على ما هو عليه، فإذا كان إله موسى معدوماً فلن يتعلق علمه به، ومن هنا عبر عن انتفاء وجوده بانتفاء علمه هو بوجوده، مما يتحتم معه نفي مطلق لوجود الإله الذي ادعاه موسى.

وبما أن موسى وصف الإله الذي بعثه وسماه برب السموات، فقد ظن أو توهم أن مملكته ومقره في السماء، حينئذ اتجه نحو هامان منادياً له من وسط كلامه (بيا) الدالة على تكبره وعلوه قائلاً:

---

(١) سورة القصص: الآية ٣٨.

﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾[1].

والمعنى نفسه صاغه الحق عز وجل في عبارات مطابقة للآية السابقة، وبزيادة يسيرة اقتضتها المناسبة، حيث جاء فيه:

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾[2].

وبناء على رغبة الفرعون فيجب أولاً إشعال أفران البناء، وذلك لتأخر البناء عادة إلى ما بعد إحضار مواده، فأمر هامان بإحضار مواد البناء والتي أولها إشعال التنانير لطبخ الآجر، وعبر عن الآجر بالطين لكونه قوام صنع الآجر، تعجيلاً منه في إقامة هذا البناء المرتفع، واعتماده على المادة الطينية المطبوخة وحدها في بنائه وتشييده مرده إلى أنه يؤدي مهمة مؤقتة، وهي سرعة الوصول في ارتفاعه إلى حد يراه الناس وهو يشق طريقه في السماء، حتى يصل إلى مقر إله موسى المزعوم ليتمكن من رؤيته، فإذا لم يجده رجع إلى قومه فأثبت لهم عدم وجود إله في السماء إثبات معاينة، فكأنه أراد الظهور بمظهر الباحث عن الحق، حتى إذا أخبر قومه بأن بحثه أسفر عن كذب موسى ازدادوا ثقة في بطلان دعوته، ونفوراً من أقاويله، واهتزت الثقة في معارضة الرجل المؤمن وتلاشت نصائحه ومواعظه.

ولم ينتظر الفرعون بناء الصرح فيصعد إلى إله موسى ليأتيهم من هناك بالخبر اليقين، بل قطع شكه في صدق موسى بقوله:

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾[3].

ومن هنا كانت رغبته في الوصول إلى السماء، ومحاولته تكبد

---

(١) سورة غافر: الآيات ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٨.

(٣) سورة غافر: الآية ٢٧.

المشاق لزيادة تحقيق ظنونه في عدم وجود إله أصلاً، فكأنه قصد منذ البداية إلى التمويه على قومه ليلقي في روعهم أن موسى ادعى له رباً في مكان يصل إليه بناء شيده هو، ثم يجعل من عدم العثور عليه في ذلك الارتفاع البعيد تعضيداً لصدق دعواه في عدم وجوده.

أدت المواجهة العقيمة مع الفرعون، والاستقبال الفاتر لنصائحه من قبل قومه، بالرجل المؤمن إلى قطع الأمل والرجاء في هداية القوم وصلاحهم، فتحدث إليهم وللمرة الأولى حديثاً بناه على قناعته الذاتية بدعوة موسى، واقتناعه الشخصي بصدق رسالته. فدعاهم صراحة إلى ترك عنادهم وعدم الانسياق وراء أكاذيب الفرعون، متخلياً عن حياده في عرض وجهة نظره، وكاشفاً وبصورة غير مباشرة عن إيمانه بالله تعالى، فقال لهم ناصحاً وداعياً:

﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾﴾[1].

افتتح الرجل المؤمن دعوته لقومه بلفت نظرهم إلى حقيقة تتعلق به شخصياً، وهي أنه على حق ويقف مع الحق ويدعو للحق، وبالتالي فالانقياد له يعني المضي قدماً على طريق مستقيم بعيداً عن مواطن الزلل والسقوط، وسعى بهذا التركيز الشديد على قناعته الشخصية إلى استرعاء انتباههم لعله يأتيهم بما تتوق إليه نفوسهم كيف لا وكل منهم يرغب في اتباع الحق، ويتجنب قدر المستطاع طريق الغي والضلال.

وفي الوقت الذي لاحت له بوادر إقبال عليه وإصغاء إلى ما عنده، أكمل حديثه ببيان صغر شأن الدنيا وهوانها ومحدودية أجلها، والإخلاد إليها أصل الشر كله، ومن الدنيا يتفرع كل ما يستجلب

---

(١) سورة غافر: الآيات ٣٨ ـ ٤٠.

غضب الله وسخطه، أكد على هذا لعلمه بأن دفاع الملأ من قومه عن دينهم، وتسليمهم الأعمى للفرعون في رضاه وغضبه منبعث أصلاً من محبتهم للسؤدد والسيادة على الناس، ومن حبهم للسلطة ومظاهرها البراقة، وغيره مما ينتفع به في الدنيا، ثم يزول ويتلاشى، ثم ثنى بتعظيم شأن الحياة الأخروية بوصفها الموطن والمستقر الدائم حيث السعادة الخالدة أو الشقاء الدائم.

بعد تقرير هذه الحقائق البديهية انتقل لأهمية الأعمال سيئة كانت أم حسنة، وعاقبة كل منها، وتخصيصه لها هنا بالتنبيه والإشارة عائد إلى اهتمام القوم الزائد بحسن الاعتقاد وإهمالهم وتهاونهم في الأعمال، فأعاد إلى أذهانهم ضرورة تطابق الإيمان والعمل، مبيناً في سياق كلامه كيف تحصل المجازاة في الآخرة، وكيف يغلب جانب الرحمة على جانب العقاب فجزاء السيئة له حساب محدد ومقدر ولا يزيد على ما يقابلها من استحقاق، أما جزاء الحسنة فبغير حساب، وذلك لأن الزيادة في جزاء السيئة ظلم يستحيل صدوره عن الله، والزيادة في جزاء الحسنة فضل من الله والله ذو الفضل العظيم.

ويظهر فيما تدل عليه كلمات الرجل المؤمن أنه قوطع فجأة من قبل القوم منكرين عليه قوله، أو لعله سكت لبرهة دعوه خلالها للإقلاع عن قناعاته والتنصل من موسى ودعوته، ولكن المؤمن وبذات النداء رد عليهم قائلاً:

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة غافر: الآيات ٤١ ـ ٤٤.

إن مرد استفهام الرجل وتعجبه إلى دعوتهم إياه لدينهم مع وضوح موقفه وسلامة إيمانه، وكذب دعوتهم وبطلانها، فدعوته إلى دين الله مآلها النجاة، ودعوتهم إلى دين باطل عاقبته الهلاك، وما يدعونه إليه ليس له دعوة إلى نفسه، إذ من حق المعبود بالحق أن يدعو الناس إلى طاعته، وما يدعون إليه إلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، فكيف يدعون هم إليه وإلى عبادته، وليس له دعوة نافعة في الدنيا أو الآخرة.

وكالمتحدي لهم ختم حديثه بأنهم الآن قد أعرضوا في إصرار شديد عن نصائحه، وضربوا عرض الحائط بمواعظه، ولكنهم في اليوم الذي يشهدون فيه عذاب الله، سيسترجعون في أذهانهم كيف كان حريصاً على خيرهم وراغباً في صلاحهم، ويومئذ سيندمون حيث لا ينفع الندم، ويتمنون لو استمعوا إليه واتبعوه في دعوته، حيث لا تنفع الأماني والآمال.

عند هذا الحد أراح الرجل المؤمن ضميره، واطمأنت نفسه إلى سلامة مقصده، فاتجه إلى ربه باسطاً بين يديه ذاته وتاركاً له التصرف في أموره كيف يشاء.

وعلى أي حال فإن موقف الرجل في مجمله والآراء التي أدلى بحكم منصبه وقرابته من الفرعون، عدت في عرف الفرعون وملأه معارضة صريحة لإجماعهم، واجتراء فاضح على مقام الفرعون، وتطاول غريب على ذاته المؤلهة، وبانفضاض ذلك الاجتماع العاصف اختلى الفرعون بمن يركن إليهم من آل بيته ووزرائه المقربين للتشاور في شذوذ الرجل وفي مغزى معارضته والتي تدخله ضمن المتواطئين على سلامة أمن الدولة والفرعون، مما يحتم عليهم معاملته مثل معاملة موسى بل أشد وأقسى ليكون عبرة وعظة لغيره، ويخبرنا الحق عز وجل عما أضمروه وأعدوه له في قوله تعالى:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾[١].

وواضح من الخبر أن الرجل لم يكن محيطاً بما كان يدبر له في الخفاء من شدائد كيدهم ومكرهم، ولكنه قد فوض أمره لله تعالى، فتكفل ربه بحفظه ورعايته وحمايته من السوء والأذى. فصرف عنه كيدهم، ونجاه من مكرهم، أما المتآمرين من آل فرعون فقد أحاق بهم من النكال، ولحق بهم من العذاب وضروب المحن والآفات والبلايا ما ظلت أخباره يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل.

الآيات:

إن الغلبة التي تحققت لموسى عليه السلام على الفرعون وملأه وما ترتب عليها من اجتماعات ومناقشات على قمة أجهزة الدولة قد أدخلت بني إسرائيل في دوامة من الخوف والهلع والتوجس، وقد أشيع فيما بينهم أن الملأ من قوم فرعون يحرضونه على إعادة تطبيق خطة والده رع مس سو بحذافيرها، وبينما هم على هذه الحالة يتوقعون ما بين يوم وآخر ضربة أخرى من ضربات الفراعنة، خاطبهم موسى عليه السلام تطميناً لقلوبهم الواجفة، وتسكيناً لنفوسهم القلقة، فقال:

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

أراد موسى عليه السلام بقوله هذا أنه في حالة وقوع ما يشاع ويتردد على الألسنة من إعادة قتل الأبناء واستحياء النساء وتسخير الرجال، فعليهم التوكل على الله والاستعانة به والصبر على الابتلاء، لعل الله يدفع عنهم أذى الفرعون، وذلك لأن الأرض وما عليها من دول هي له تعالى ينقلها إلى من يشاء من عباده نقل المواريث، فقد تكون من نصيبهم بعد إهلاك الفرعون وقومه، فكأن موسى قد أطمع

---

(١) سورة غافر: الآية ٤٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢٨.

قومه بقرب زوال استعباد الفرعون لهم، وقصد صرف اليأس عن نفوسهم، ووعدهم بحسن العاقبة ليكون داعياً لهم للصبر والثبات.

رد القوم على موسى رداً يفهم منه نفاد صبرهم وضيقهم بتفاؤله وآماله العريضة فقالوا له:

﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[1].

مشيرين بذلك إلى ما لحقهم من اضطهاد وأذى على عهد رع مس سو قبل ولادته، وها هو الآن ابنه مرن بتاح يخطط إلى إعادة تعذيبهم وبالأساليب نفسها التي كانت مطبقة عليهم في الماضي بعد عودته إليهم بالدعوة والرسالة.

أما موسى فلم يتسلل اليأس إلى قلبه، بل لا يزال يطمع في فرج قريب من الله، به تنقشع معاناة قومه وعذابهم فقال كالمشفق عليهم:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2].

لم يقطع موسى عليه السلام الرجاء والأمل في عون الله ونصره، ولا في قبول القوم لنصيحته لهم بالصبر والتوكل ليزدادوا من التقوى والتعرض لرضى الله ونصره حتى يملكهم الأرض ويستخلفهم فيها، وفي الوقت نفسه حذرهم من الإتيان بأعمال لا ترضي الله، ثم حرضهم على الاستكثار من الطاعة والأعمال الصالحة، إذ لا يجازي الله عباده على ما لم يعملوه، وإنما يجازيهم على ما يوجد ويقع من الأعمال.

وبإزاء تلك المخاوف التي أحاطت ببني إسرائيل، واليأس المطبق الذي حل بهم من النجاة والخلاص، تردد بعضهم في قبول دعوة

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

موسى، وامتنع آخرون خاصة كبار السن ممن ابتلى بموجات الاضطهاد الأولى، وأولئك الذين عاشوا أحداثها وهم صغار السن، كل ذلك خوفاً من غضبة الفرعون، وأجابه من ذرية هؤلاء ممن هم في سن موسى أو أصغر منه، وعلى خوف ووجل من امتحان الفرعون لهم، وابتلاءهم في إيمانهم بضروب من العذاب يعجزون معها من الصبر والثبات، وهؤلاء هم الذين خاطبهم موسى بقوله:

﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[1].

قال موسى عليه السلام ما قال إدراكاً منه بأن إيمان هؤلاء قد لا يصمد في وجه صنوف العذاب والمحن، لأنهم آمنوا على خوف ولذلك كرر عليهم ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ لتجتمع فيهم صفتي التصديق والانقياد، ويعني به: إن كنتم آمنتم إيماناً لا يتزحزح فسلموا أنفسكم خالصة لله، وتوكلوا عليه عند نزول الشدائد، ثقة بحسن تدبيره.

ردت تلك الفئة على موسى عليه السلام رداً تضمن صدق إيمانهم وثباتهم عليه فقالوا:

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

تضمن رد هؤلاء المؤمنين إسناد أمورهم لله تعالى واثقين من حسن تدبيره، مما يفسر دعاءهم بألا يمكّن منهم الظالمين فيعذبونهم عذاباً يحملهم عن العدول الظاهري عن إيمانهم، فينقلبون بانصرافهم عن دينهم إلى فتنة يفتتن بها هؤلاء الكفار، فيقولون لو كانوا على الحق لما ظفرنا بهم.

وبعد فترة أوحى الله تعالى إلى موسى بأن يتخذ لبني إسرائيل بيوتاً غير التي يسكنون فيها كي تكون مرجعاً، يجتمعون فيها للنظر في

---

(١) سورة يونس: الآية ٨٤.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٥.

مختلف شؤونهم الدينية والاجتماعية، على أن تتجه تلك البيوت في شكلها وهندستها البنائية جهة المشرق، أي تجاه القبلة التي يصلون إليها، كما أمرهم من جهة أخرى بإقامة الصلاة والتي اعتادوا على أدائها قبل مجيء موسى اتباعاً لإبراهيم عليه السلام، والمواظبة عليها.

ولا شك أن الأمر لموسى عليه السلام ببناء وتشييد تلك البيوت وعلى ذلك النمط الجديد في حياة بني إسرائيل مؤذن بتوقع أحداث جديدة وكبيرة مقبلة يجب الاستعداد والتهيؤ لها، وذلك لأن الفرعون وقومه لا يزيدون مع الأيام إلا كفراً وطغياناً واستكباراً، ولأجل هذا دعا موسى عليه السلام بما علم منه تعالى ألا يكون غيره منهم فقال:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[1].

عدد موسى عليه السلام في دعائه نعم الله تعالى على القوم وأبرزها زينة الحياة كالمباني الضخمة والحدائق الغناء ورفاهية العيش وغيرها من منجزات الحضارة التي أطفت على حياتهم جمالاً وروعة، ثم ثنى بالأموال والتي هي قوام حضارتهم وحياتهم، ومصدر قوتهم وسعادتهم وسيادتهم، وهي التي أغرت الفرعون بالطغيان والإعراض عن دعوة موسى، فخصها موسى دون زينة الحياة الدنيا في دعائه بالمحو والإزالة. وتغييرها إلى وجهة لا ينتفع بها، أما قلوبهم وعقولهم فليجعلها الله ضيقة حرجة، وليقويها على الكفر إلى حد الاستيثاق والإحكام حتى لا يدخلها نور الإيمان، وإذا آمنوا فلا يؤمنوا طوعاً واختياراً، بل إلجاءاً واضطراراً وذلك حين يرون عذاب الله قد حط بثقله عليهم.

وإذا كان دعاء موسى يدل على شيء فإنما يدل على أن العداوة

---

(١) سورة يونس: الآية ٨٨.

بينهما بلغت حداً لا يتيح فيه للفرعون التنازل لموسى ولو بأدنى مطالبه، ناهيك عن تحقيق رسالته بالخروج ببني إسرائيل من بلاده، فدون ذلك قرت القتاد، ورغم هذا فقد ظل موسى يتردد على بلاط الفرعون مرة بعد أخرى محاولاً إقناعه بإطلاق قومه من الأسر والأذن لهم بمغادرة البلاد، والفرعون من جانبه يعد ويماطل في إنجاز وعوده، ثم يخلف وعده مخالفة من لا يقر له قرار في وعده ومخالفته.

وفيما يبدو فقد كانت تلك الفترة التي قضاها موسى على هذه الحالة قصيرة في عمر الزمان، طرأ خلالها شيء لم يكن في الحسبان، إذ عم فجأة القحط والجدب البلاد من أقصاها إلى أقصاها، ومن غير سابق إنذار وبلا مقدمات، وبطريقة خارقة لمألوف عوائد الناس وعاداتهم، وهي التي رواها القرآن في خاتمة تلك المدة حيث قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[1].

استمر الجدب والقحط لفترة قل خلالها استغلال الزرع والانتفاع بالضرع، وتدنى إنتاجية كل ما يروى بمياه النيل كالحدائق والبساتين، كي ينتبهوا إلى أن الأضرار التي أصابتهم في ثرواتهم ومصادر رزقهم، والمصائب التي حلت بهم وعلى هذا النحو المفاجىء هي عقاب من عند الله على إعراضهم عن قبول الحق، وتذكيرهم برسالة موسى ودعوته.

ومغزى أخذهم بالضراء يكمن في أن الابتلاءات والشدائد ترقق القلوب فترغب فيما عند الله من رحمة واسعة وفضل كبير، حتى إذا بلغت الغاية من مقصودها كشف الله عنهم الضر لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويرتدعون عن تمردهم، ولكن القوم بدلاً من الاهتداء

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٠.

استمروا على كفرهم وعنادهم، فحكى الله تعالى عنهم قائلاً:

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[1].

وكما يستفاد من حكاية الله تعالى فنعم تترى عليهم في مقابل ضر قليل يصيبهم، ورغم ذلك فإذا جاءهم الخصب والسعة في الرزق والسلامة وحصولهم على كل مرغوب، ادعوا استحقاقهم له بلا سبب موجب، وإذا أصابهم الجوع والبلاء ونضوب الرزق وقلة الثمر وهزال المواشي أسندوها جميعها إلى موسى ومن معه، بحسبانهم سبباً في حلولها بهم، وذلك لاعتقادهم بأن محافظتهم على دينهم سبباً في رغد العيش والرفاهية، وحسبوا وجود من يخالفهم في الدين سبباً في المصائب والابتلاءات، فتشاءموا به وبهم، ولولا دينه ودينهم لم يكونوا مشؤومين عندهم.

إذن فشؤم موسى ومن آمن به عائد إلى دينه الذي لا يرضون عنه، وفي المقابل لا يرضى هو عن دينهم، فأنكروه وأنكرهم ونفروا منه ونفر منهم، ولعل هذا ما دعاهم في النهاية إلى مجابهته قائلين:

﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فكأنهم بإصرارهم وعنادهم قالوا لموسى: كيف ما تأتنا به من المعجزات والآيات لتموه علينا به حتى تنقلنا عن دين الآباء والأجداد فما نحن لك بمصدقين ولو جئتنا بكل آية، مطلقين على دلائل موسى ومعجزاته آية باعتبار الغرض الذي تحداهم به، في حين هم في سرائرهم لا يعترفون بها آية، وإنما جاروا موسى بالتسمية استهزاء، وفي الوقت نفسه مبالغة منهم في حسم انتفاء إيمانهم وثبوت هذا الانتفاء ودوامه.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٣٢.

إن إصرار فرعون وقومه على تكذيب موسى عليه السلام ولو أتاهم بجميع الآيات تحدياً له وإمعاناً في الكفر، واجهه الحق عز وجل بمزيد من المصائب والابتلاءات، رداً على تحديهم وتأكيداً لنبوة موسى، سماها الله تعالى آيات، أي معجزات ظاهرة وأدلة واضحة، أرسلت عليهم كل واحدة منفصلة عن الأخرى، وعلى فترات متباعدة. لعلهم يرعووا ويوقنوا بصدقه، وهي خمس آيات، الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وأول محنة تعرض لها القوم هي زيادة في مياه النيل زيادة خارجة عن العادة المألوفة للفيضان، يصاحبه هطول أمطار غزيرة استمرت لفترة، لا يقدر الواحد منهم على الخروج من داره، فغمرت المياه الأرض، وغطت المزارع والطرقات، ثم ركدت لتحول بينهم وبين الحركة، فحبسوا في بيوتهم، في حين سلمت بيوت بني إسرائيل وبقيت على حالها قبل الطوفان، وداموا على هذه الحالة فترة ضاقوا فيها ذرعاً. فقالوا لموسى:

ـ ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل.

فدعا موسى ربه فرفع عنهم الطوفان وعادت الأرض إلى وضعها الطبيعي، وعادوا هم إلى مزاولة نشاطهم اليومي المعتاد، ولكنهم نكصوا عن وعدهم فلم يؤمنوا بموسى، فأنبت الله لهم في تلك السنة من الكلأ والزروع والثمرات الشيء الكثير، وبدلاً من النظر معتبرين بحالتهم أثناء الطوفان وما هم عليه الآن قالوا بلجاجتهم المعهودة:

ـ ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصباً.

وأقاموا على تلك النعمة والخصب مدة، ثم أرسل الله عليهم الجراد، فأكل زروعهم وثمارهم وأوراق الأشجار، بل تعدى إلى أكل الأبواب وأسقف المنازل الخشبية والثياب والأمتعة، وكان الجراد لا

يدخل بيوت بني إسرائيل، فضجوا وتبرموا، وجزع الفرعون جزعاً شديداً فقال لموسى:

ـ يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الجراد حتى أترك لك بني إسرائيل.

وخرج موسى إلى الفضاء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد من حيث أتى، وكان قد بقي لهم من ثمرات أشجارهم وزروعهم شيء قليل فقالوا قولة من لا يتعظ بآية أو يذعن لحق.

ـ يكفينا ما بقي.

وجزاء لخلفهم الوعد سلط الله عليهم القمل وهو نوع من القراد، فأكل ما تركه الجراد. وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه حتى منعهم من النوم والاستقرار، وأعيتهم الحيلة في دفعه عنهم، وكان يأكل أحدهم طعاماً فيمتلىء قملاً، ولم يصابوا من قبل ببلاء أشد عليهم منه، وصاحوا ألماً وضجراً، وكالعادة فزعوا إلى موسى ودعوه إلى دفعه عنهم على أن يؤمنوا ويصدقوا، ففعل موسى وصرفه الله تعالى عنهم، ولكنهم نكثوا عن وعدهم قائلين هذه المرة:

«ما كنا قط أحق أن نستيقن أن موسى ساحر إلا اليوم، فعلى ماذا نؤمن ونرسل معه بني إسرائيل، فقد أهلك زرعنا وحرثنا، وأذهب أموالنا، فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل، وعزة فرعون لا نصدق به أبداً ولا نتبعه»[1].

وبعد فترة على هذه العبارات الجافة خرجت عليهم من النيل الضفادع وبأعداد هائلة، ونقيقها يسمع من كل جهة وناحية، فدخلت بيوتهم وامتلأت بها، وكان أحدهم لا يكشف ثوباً ولا إناء ولا طعاماً ولا شراباً إلا وجد فيه الضفادع، وإذا فتح أحدهم فاه لأكله سبقته الضفدعة إلى فيه، وكانوا لا يعجنون شيئاً من العجين إلا دخلت فيه،

---

(١) قصص الأنبياء ـ النيسابوري ص ١٦٢.

ولا يطبخون قدراً إلا امتلأت منه، وينام الواحد على فراشه فيستيقظ وقد أحاطت به الضفادع من كل ناحية، وتطؤه أرجلهم فتتقذر منه البيوت وتمتلىء بروائحها العفنة، وامتلأت طرقاتهم جيفاً من كثرة ما مات أو قتل، وضاق عليهم الأمر حتى كادوا يهلكون، وبكوا وشكوا إلى موسى قائلين:

- ارحمنا هذه المرة فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود.

فأخذ عليهم العهود والمواثيق، ثم دعا ربه، فولى الحي منها وجهه صوب النيل، وأرسل الله على الميت ريحاً نحتها عن أماكن سكنهم، ولكنهم بمجرد زوال البلاء نقضوا عهدهم وميثاقهم وعادوا إلى تكذيبهم وجحدوهم.

وتعاقبت عليهم الأيام وهم على هذه الحالة من التكذيب وعدم احترام وعودهم إلى أن أرسل الله عليهم الدم، فتحول المياه سواء كانت مياه النيل أو الآبار إلى دم أحمر قان، فانقلبت حياتهم إلى جحيم لا يطاق، ويحكي النيسابوري عن جانب من جوانب تلك المحنة فيقول:

«كان يجتمع الرجلان على الإناء الواحد القبطي والإسرائيلي، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً عبيطاً، وكان القبطي والإسرائيلي يستقيان من ماء واحد، فيخرج ماء القبطي دماً، وماء الإسرائيلي ماء عذباً، وكان يقومان إلى الجرة التي فيها ماء فيخرج للإسرائيلي ماء وللقبطي دم، حتى أن المرأة من قوم فرعون تأتي إلى المرأة من بني إسرائيل حين يجهدها العطش فتقول اسقيني من مائك فتسكب لها من جرتها، أو تصب لها من قربتها فتعود من الإناء دماً، ثم تقول لها اجعليه في فيك ثم مجّيه في فيّ، فتأخذ في فيها ماء فإذا مجته صار دماً، وإن فرعون اعتراه العطش في تلك الأيام حتى أنه اضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً

أجاجاً..[1]

مكث القوم فترة لا يأكلون ولا يشربون إلا الدم حتى برموا بحياتهم فلجأوا كعادتهم إلى موسى قائلين:

- ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنرسل معك بني إسرائيل.

فدعا موسى ربه فعادت المياه إلى مياه عذبة صافية كما كانت عليه، إلا أنهم لم يصونوا عهدهم أو يفوا بوعدهم.

ومهما يكن من أمر تلك الآيات فهي كما رأينا تضييق وتذكير على القوم في معايشهم، قد تُخرج حياتهم عن حد الاستقامة والاعتدال، بل تقلبها رأساً على عقب، ولكنها لا تقضي على الحياة وتفنيها إلى درجة العدم، ولما أنزل الله تعالى عليهم الطاعون القاتل (الرجز) تجاوز الابتلاء حد التضييق والتذكير إلى تهديد الحياة نفسها، فأفضى وفي فترة وجيزة إلى موت الألوف منهم في أول سابقة زلزلت الأرض من تحت أقدامهم، فاضطروا مذعنين إلى الاعتراف ولو ظاهرياً بآيات الله ومعجزاته، ومؤكدين هذه المرة بما يشبه القسم على التزامهم بعهدهم فقالوا لموسى:

﴿يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2].

غير أن وعدهم لموسى بالإيمان محمول فقط على كونه مرسل من رب بني إسرائيل ليخرجهم من بلادهم، وليس في الحقيقة وعد له باتباع الدعوة التي جاءهم بها، ويكذبه زعمهم القديم بكون موسى ساحر يريد طردهم من أرضهم، ولذلك اقترن الوعد بموسى لا رب موسى، وضمن سياق يعبر عن اعتقادهم القديم الذي لم يتزحزحوا عنه مطلقاً وهو أن الرب الذي يدعو إليه موسى رب خاص به وقومه.

---

(١) قصص الأنبياء - النيسابوري ص ١٩٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٣٤.

واستجاب موسى لرغبة القوم فدعا ربه برفع الطاعون المفضي إلى الموت فأجابه ربه إلى دعاءه، وفي الفترة ما بين زوال خطر الطاعون وعودة الحياة إلى مجراها الطبيعي، وحتى اللحظات التي يفترض فيها استعدادهم وتهيأهم للوفاء بعهدهم الذي أقسموا على الالتزام به، فاجأوا موسى بنقضهم ونبذهم له، مما يدل فعلاً على نيتهم المبيتة على النكوص في أول بادرة يشعرون فيها باستغنائهم عنه، وعلى إصرارهم المقيت ألا يسمحوا لبني إسرائيل بالخروج.

كان الاعتقاد السائد بين قوم فرعون قبل نزول الطاعون بأرضهم أن الساحر الماهر المتمكن من حرفته وصناعته باستطاعته إيقاع الأذى والضر بغيره، تماماً مثلما فعل موسى معهم. وقد يصل في بعض الأحيان إلى حد إفناء الحياة، ولكنه لا يستطيع مهما برع في سحره القضاء وفي لمح البصر على حياة الألوف بحيث يتساقطون صرعى كأوراق الشجر ذات اليمين وذات الشمال، وعلى نحو خارق للعوائد، الأمر الذي حدا بالكثير منهم نحت وطأة الكوارث المتلاحقة إلى التسليم لموسى بأخف الضررين وهو الاعتراف بقوته وبراعته الفائقة في إلحاق الضرر بهم. ولجوؤهم إليه مرة بعد أخرى لدفع الضرر عنهم، وقادهم التسليم بالضرورة إلى قناعة كاملة بصدق موسى، وتكون حول هذه القناعة رأي عام حظي باهتمام الكثير، وشغل مساحة كبيرة في تفكيرهم، وكان الموضوع الأساسي لأحاديثهم في المجالس والأسواق والمنتديات، يعارض ليس فقط موقف الفرعون وملأه من موسى ودعوته، بل السياسة العامة للدولة، ويطالب بالكف عن تحدي موسى وربه، والسماح له بالخروج مع قومه، ضماناً لسلامة أرواحهم وبلادهم.

والفرعون بحكم منصبه على علم ببروز مثل هذا الاتجاه المعارض لسياسته، ومدركاً لبواعثه ودوافعه، وعلى قناعة تامة بخطورته إذا تخطى دائرة معالجة مشكلة يعاني منها الجميع إلى التعدي المباشر على ذاته المؤلهة، ولعل هذا ما أكرهه لاتخاذ قرار لم يسبق إليه، وهو

المناداة على القوم في تجمعاتهم ومجالسهم مذكراً بهذه الحقيقة والتي يعول عليها في بناء الدولة والمجتمع والحكم فقال:

﴿يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[1].

أراد الفرعون بندائه هذا أن يذكر الناس بحقيقة ربما غفلوا عنها بفعل المصائب المنهمرة على رؤوسهم وهي سلطته المطلقة والتي لا ينازعه فيها كائناً من كان، وتمكنه من تصريف أمور البلاد والعباد تصرفاً شاملاً، ثم لفت أنظارهم كي يوازنوا بين عظمته وقدرته على التسخير، وبين موسى هذا المخلوق الضعيف الذي لا يكاد يفصح في كلامه، ولا يبين في نطقه، قفز بعد ذلك معترضاً بأن موسى لو كان بالفعل صادقاً فيما يقول، فلماذا عندما أرسله ربه وسوده لم يطوقه بطوق من ذهب كما جرت العادة، أو على أقل تقدير ضم إليه الملائكة فيستكثر ويتقوى بهم. فيكون ذلك أهيب في القلوب وأعظم في عيون الناس، موهماً بذلك قومه ومموهاً عليهم بأن رسل الله ينبغي أن يكونوا كالملوك أو رسل الملوك.

وانطلى الوهم على قومه، وأثر تمويهه في نفوسهم وفي لمح البصر تناسوا ما سبق منهم، وتابعوا الفرعون على رأيه، فيقول تعالى مخبراً عنهم:

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2].

إن إخبار الله تعالى عن حالة القوم يعطي صورة موجزة ودقيقة عنهم وفي موقفين مختلفين، موقف كانوا فيه على أهبة الاستعداد للتصديق بموسى والتسليم له في دعواه، والموقف الذي سمعوا فيه

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ٥١ ـ ٥٣.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٥٤.

نداء الفرعون، فعجلوا إلى طاعته.بسرعة من كان في انتظار الأمر والنداء، وكلمة الخفة معبرة تماماً عن سرعة الانتقال من حالة تأمل فيها القوم ملياً ما آلت إليه حياتهم وتثاقلهم في اتباعِ الفرعون، إلى التعجيل المتسارع في الامتثال لأمره، مما يوحي فعلاً بعمق اعتقادهم في ألوهية الفرعون، وعندما أحدثت الابتلاءات قليلاً من الشك والتردد في شأنه، لم يلبثوا أن خفوا على عجل لطاعته بأهون الأسباب وهو التذكير فقط، دون أن يقترن التذكير بأي ترهيب أو ترغيب.

الفصل الرابع
مؤمن آل فرعون خليفة مصعب بن الوليد



الغرق:

أحدث نداء الفرعون المفاجىء عقب تلك الآيات وبوصفه رسالة وبيان للأمة شرخاً عميقاً في العلاقات بينهم وبين بني إسرائيل، ووضع نهاية لمرحلة طويلة من المعاناة اتسمت بطابع المكابرة والعناد والمماطلة، حيث آلت الأمور فيما بينهما إلى القطيعة الكاملة بكل ما يكتنفها من شك وارتياب وخوف وقلق وتوجس تلقى بظلالها الكالحة عليهم قاطبة، وبات الجميع على قناعة واقتناع بأن أي محاولة من أحد طرفي النزاع لرأب الصدع محاولة عقيمة وعديمة الجدوى، مما حدا بهم للكف تماماً عن القيام بأي حركة أو نشاط يأخذ طابع الصراع فيشعل فتيل المواجهة الحادة، ويعيد الأمور إلى ذات الحلقة المفرغة بذكرياتها القاسية، ومآسيها التي خلقت جفوة لا زالت الأيام تزيدها حدة وشدة ومرارة.

وعلى هذا النحو الصامت في العلاقات بين الطرفين سارت الحياة سيرها الحثيث دون حدوث ما يعكر صفوها، أو يخل بتتابعها البطيء وإيقاعها الرتيب، ولكن هناك يقين سائد بين الجميع، ومن واقع خبرتهم بطبيعة دعوة موسى الربانية، والاعتقاد الجازم بألوهية الفرعون، بأن الأمور لا يمكن أن تسير على هذه الوتيرة إلى ما لا نهاية، بل لا

بد من توقع أحداث تضع إجابة شافية لكثير من أسئلة لا زالت معلقة، ولأجل هذا عاش الجميع وهم يعانون حالة غريبة من الترقب والانتظار، يصاحبها خوف وقلق مما سوف يسفر عنه هذا الهدوء المريب.

وهذا ما حدث بالتحديد، فبعد فترة من الهدوء النسبي شبيهة بالهدوء الذي يسبق العاصفة نزل الوحي على موسى عليه السلام يأمره وقومه بمغادرة البلاد، ووقت له زمان الرحيل بالليل حيث قال له:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

إن اختيار الله تعالى لخروج بني إسرائيل في ظلام الليل يوحي بجو من الخفية والخوف والتستر، حتى لا يثير شكوك القوم إذا خرجوا هكذا جهاراً نهاراً، فيحولوا بينهم وبين المراد، ولذلك علل الله أمره باتباع الفرعون وجنوده لهم، واقتفاء آثارهم، ومن ثم يزول استغراب الخروج ليلاً، إذ قدر الله وقضى على أن يتقدم بنو إسرائيل مسافة يتعذر فيها على فرعون وقومه اللحاق بهم، ثم يتبعونهم بعد ذلك ويلحقون بهم، إعلاماً منه تعالى وتشجيعاً لهم على أنهم في كل الأحوال تحت رعايته وحفظه.

وعند أول الليل تحركت جموع بني إسرائيل من مدينة بر رع مس سو بعدد يقدر بنحو ستة آلاف نسمة ميممة وجهها صوب المشرق نحو الأرض المباركة، وفي منتصف هذه الليلة وبينما هم يغدون في السير وقع حادث أربك قوم فرعون وجعل كل واحد منهم مشغولاً بنفسه مذهولاً عمن سواه، غافلاً عما يجري حوله، إذ مات فجأة بكر كل أسرة ذكراً كان أم أنثى، كما نفقت أبكار أموالهم وأنعامهم، وهذا الحدث هو الذي أرخ له سفر الخروج بقوله:

«فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض

---

(١) سورة الدخان: الآية ٢٣.

مصر، بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذي في السجن وكل بكر بهيمة، فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت»[١].

وحين انتصف نهار هذا اليوم الدامي والبكاء والنواح والعويل يعم بيوت القوم، كان بنو إسرائيل قد قطعوا نصف المسافة بين مدينة بر رع مس سو وبلدة سكوت، والتي تبلغ نحو عشرين كيلو متر حيث أمضوا فيها ليلتهم الأولى، وفي صبيحة اليوم التالي تحركت جموعهم صوب بلدة أيتام المعروفة في عصر الفراعنة باسم أدوم على حافة الصحراء، حيث ضربوا خيام معسكرهم ليقضوا ثاني ليلة لهم بعد سفر طويل ومضن.

ولما أشرقت عليهم شمس اليوم الثاني في محطة خروجهم الثانية أمر الله تعالى موسى بتعديل خط السير حيث قال له كما يروي سفر الخروج:

«كلم بني إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر وأمام بعل صفون، مقابلة تنزلون عند يام سوف»[٢].

واستجابة لمراد الله تعالى عسكر موسى وقومه على ضفة (يام سوف)، ويام في اللغة الهيروغليفية تعادل كلمة يم العربية، أي البحر، وسوف بمعنى البوص، وذلك ليمضوا جزء من نهار هذا اليوم والليل بطوله وفي منطقة غاية في التعقيد. وفي وضع يوصف بالمعايير البشرية بالوضع الحرج، إذ كان بحر البوص على يمينهم، وبلدة مجدل الحدودية بحصنها وحاميتها العسكرية تسد عليهم الطريق من جهة

---

(١) سفر الخروج ١٢: ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) سفر الخروج ١٤: ١ ـ ٢.

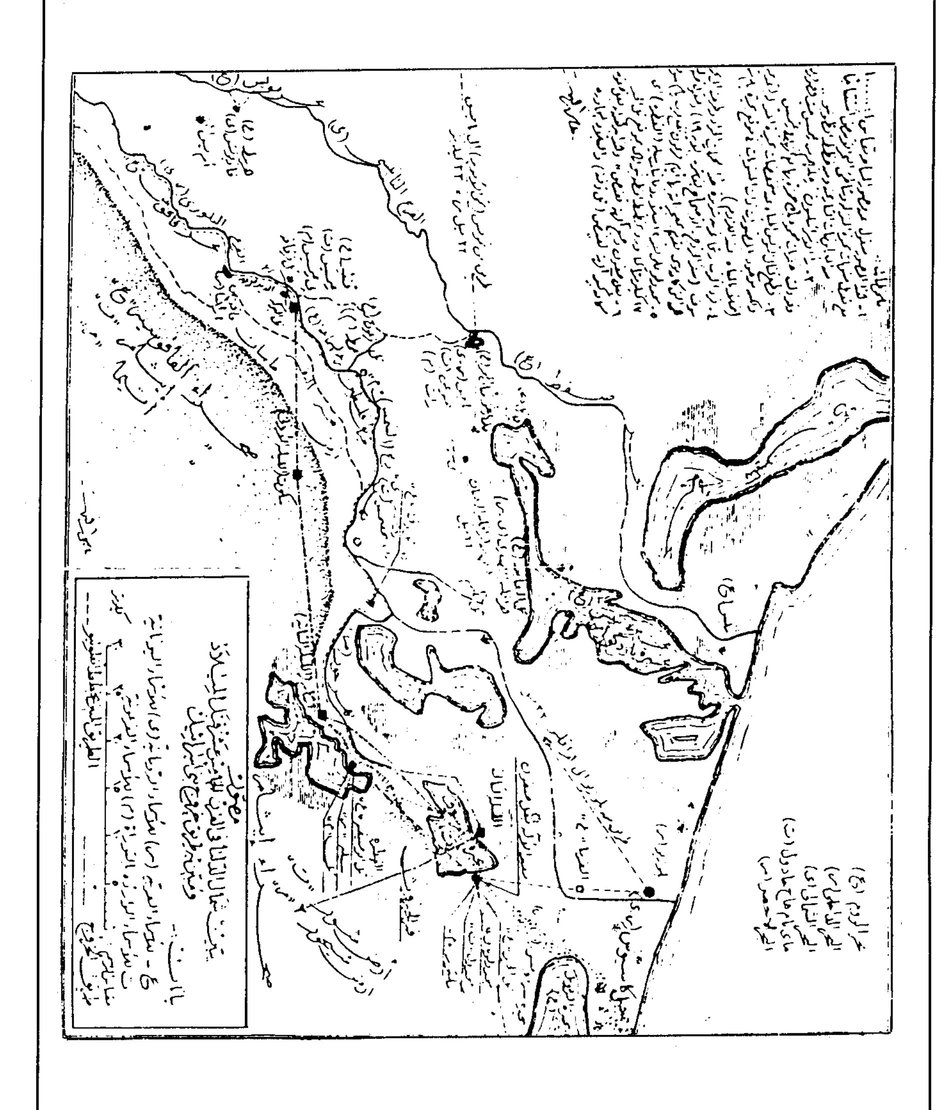
الشمال، وعلى يسارهم تتوزع مستنقعات فروع النيل بكثرة تعرقل حركة سير الجمع الصغير ناهيك عن الجموع الكبيرة، ومن خلفهم الفرعون وجنوده، ووسيلتهم الوحيدة للنجاة باتجاه الشرق عبور البحر، ويستحيل عليهم عبور البحر دفعة واحدة لافتقارهم إلى ما يعبرونه به، وحتى إن وجدت الوسيلة فقد يستغرق عبورهم دفعة واحدة رجالاً ونساءً وأطفالاً زمناً طويلاً.

ونتيجة طبيعية للحزن الجاثم على قلوب الناس من فراق فلذات الأكباد لم يتنبه أحد إلى الاختفاء المفاجىء لبني إسرائيل من شوارع مدينة بر رع مس سو وبالتالي تأخر إبلاغ الفرعون بخبر خروجهم إلى آخر ليلة الخروج، فغضب غضباً شديداً وأرسل من فوره إلى كافة مدن الدولة وأمراء الأقاليم ليجمعوا له وعلى جناح السرعة كل ما يقدروا على حشده من الجند، كما خاطب أمراء البلاط والوزراء وكبار الكهنة وأعيان الدولة ووجهاءها ألا يتأخروا عن ركبه مهما كانت الأسباب، وبانتصاف نهار اليوم التالي وبنو إسرائيل يشقون طريقهم تجاه سكوت كان قد احتشد للفرعون عدد من الجند يقدر بسبعين ألف فارس من خيرة الجند، ويبلغ عدد المركبات المنتخبة وسائر المركبات حوالي ستمائة مركبة تجرها الصافنات الجياد.

ولما اطمأن قلب الفرعون إلى عدم تخلف أحد ممن له به صلة أو قرابة أو ممن يشغل منصباً دستورياً في الدولة، وانشرح صدره باكتمال جيشه عدة وعتاداً، وقف على مركبته الحربية في تمام أبهته وعظمته مخاطباً ذلك الحشد الضخم بقوله:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[1].

(١) سورة الشعراء: الآيات ٥٤ ـ ٥٦.



خريطة تبين خروج بني إسرائيل وخط سيرهم

تضمن خطاب الفرعون حقائق معروفة للجميع، ولكنه أراد تشجيع جنده وبث الارتياح والاطمئنان في قلوبهم بعد تجاربهم الفاشلة في التصدي لموسى، فبنو إسرائيل من حيث العدد قليلون قلة لا يرجي منها أو يؤمل غلبة ولا انتصار، وهم على قلتهم فعلوا أفعالاً أثارت غضباً عليهم أعظمها شأناً مخالفتهم لنا في الدين، وأهونها خروجهم من أرضنا خروجاً قد دبر له بليل، ومن غير إذن منا، ونحن قوم من شيمتنا الحذر مما يكون له وخيم العواقب، ومن عادتنا التيقظ لئلا نؤخذ على عين غرة، وإذا خرج علينا خارج أو مكر بنا ماكر سارعنا إلى استئصال شأفته وقطع دابر شره.

ومن الصعوبة بمكان أن تظل حركة جموع بني إسرائيل الكبيرة والمتجهة صوب الشرق طي الكتمان، وبعيدة عن أعين الرقباء، لا سيما وقد كانوا يتخيرون المرور بمناطق قريبة من العمران ويتوفر فيها الملأ والكلأ. وعندما بدأ الفرعون بالتحرك كانت المعلومات عن حركة سيرهم تبلغ إليه أولاً بأول، ولأجل ذلك أسرعوا خلفهم لإدراكهم قبل التوغل شرقاً في أراضي خارج السيادة الفرعونية، وإذا أخذنا في الاعتبار بطء حركة بني إسرائيل وسرعة مركبات الفرعون وخفتها لأمكننا القول بأن اللحاق بهم مسألة وقت لا أكثر ولا أقل، ولكن انحراف موسى عن خط سيره واتجاهه شمالاً نحو بحر البوص هو الذي أبقى فارق المسافة بينهم كما كان عليه، أي فارق نصف يوم.

ولما أشرقت شمس اليوم الثالث على بني إسرائيل على الضفة الغربية لبحر البوص، وغمر ضوؤها المكان واتضحت الرؤية، أبصر الفرعون وملأه جموع بني إسرائيل متناثرة على امتداد شاطىء البحر، وفي اللحظة نفسها ظهرت لبني إسرائيل من خلفهم طلائع مركبات الفرعون تغدو في السير نحوهم، ولم يشك أحد من أن الذي يراه على مرمى بصره هو غريمه، وبالتالي لم يبق من التحامهم في معركة فاصلة إلا قطع المسافة بينهما، والتي ما فتئت تضيق رويداً رويداً، عندئذ تملك بني إسرائيل الذعر والخوف، وبلغ بهم الكرب مداه

ولسان حالهم يقول لموسى كما عبر عنه سفر الخروج:

«هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية، ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية»(١).

أما الخاصة من أصحاب موسى ممن وهبهم الله عقلاً وإيماناً وثباتاً في الملمات وصبراً عند الشدائد فقد شكوا إليه عن واقع مشهود يقف فيه المرء حائراً قائلين:

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(٢).

وذلك لأن الحصار قد أحكم عليهم بالفعل، البحر أمامهم وفرعون وجنده قد أحاطوا بهم من كل ناحية، فهم بين نارين، بحر مغرق وجند مهلك، فما هي إلا دقائق معدودات حتى تعمل فيهم السيوف قتلاً وذبحاً، ولكن موسى عليه السلام رد عليهم رداً قصد به زجرهم وردعهم عن ظنونهم الباطلة، فقال لهم بثقة ويقين من النجاة:

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(٣).

حصر موسى عليه السلام النجاة والإرشاد والهداية على نفسه، وقصر معية الله عليه وحده، وذلك لأن خاصة القوم وعامتهم لم يكونوا على علم بما ضمن الله له من العناية والرعاية، فإذا أدركوا ذلك علموا أن هداية الله لموسى نافعة لهم، إذ هو رسولهم وقائدهم الحريص على نجاتهم، علاوة على ذلك فإن طريق النجاة من حصار

---

(١) سفر الخروج ١٤ : ١٢ ـ ١٣.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٦١.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٦٣.

أحكم طوقه وأوشك العدو على الفتك بهم لا يحصل إلا بفعل يقطع دابر العدو ويجتث شروره، ومثل هذا الفعل الخارق للعادة لا يقدر عليه إلا الله وحده.

ولما أُحكم الخناق على بني إسرائيل وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وذاقت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، أوحى الله تعالى إلى موسى بأن يضرب بعصاه البحر، فتقدم نحو الشاطىء حيث وقف ومياه البحر تتكسر تحت قدميه، ثم أهوى بعصاه على البحر، فإذا بالبحر ينشق عند موضع الضربة إلى جزئين بدأ كل منهما يرتفع إلى أعلى، وبارتفاعه يتراجع إلى الخلف رويداً رويداً، وهديرهما يصم الآذان، مكونان في ارتفاعهما وتراجعهما ممراً يمكن تقدير مساحته بمساحة انتشار بني إسرائيل على امتداد الشاطىء، وعلى جانبي الممر ارتفعت المياه وظهرت كما لو كانت جبلين شامخين، يقف كل منهما أمام الآخر بعظمة تبعث الرهبة في القلوب، وفي لمح البصر بعث الله ريحاً قوية لفحت قعر البحر بطينة الأسود والمشرب بالمياه حتى صار يابساً صلباً كوجه الأرض أو أشد صلابة وتماسكاً، لئلا يعلق بالأرجل لدى السير عليه، فيعوق من سرعة المشاة والدواب، وبطبيعة الحال لم تكن الجموع التي شل الخوف والذعر إرادتها في حاجة إلى من ينبههم بعدما شاهدوا المعجزة الخارقة إلى عبور البحر من خلال الممر بين الجبلين الشامخين من المياه إلى الضفة الشرقية، فتدفقوا كالسيل العرم شاقين طريقهم إلى بر الأمان في خفة المستبشر بنجاته وسرعة الخائف المطارد من اللحاق به.

وفي الوقت الذي كان فيه بني إسرائيل يتنفسون الصعداء على الجانب الآخر من البحر، بلغ الفرعون وجنوده الشاطىء الغربي من بحر البوص، فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه مرة أخرى كي يعود إلى حالته الأولى قاصداً بذلك الحيلولة بينهم وبين الاستمرار في مطاردتهم، إلا أن الله تعالى أمره قائلاً:

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾[١].

قصد الله تعالى بأمره هذا أن يبعث الطمأنينة في قلب موسى ثم ليترك البحر على ما هو عليه مكشوفاً حتى يطمع الفرعون وجنده لعبوره في محاولتهم المستيمتة للقبض عليهم، وبلا تردد أو إمعان نظر في المعجزة الخارقة التي جعلت الماء بخواصه المعروفة يقف كالجبل العظيم اقتحم الفرعون وجنده مجرى البحر اليابس، وكأنه قد أعد لهم مسبقاً حتى يمكنهم الوصول إلى مطارديهم.

وحينما كان أولهم على وشك بلوغ الضفة الشرقية وآخرهم في وسط المجرى وعند الضفة الغربية أعاد الله تعالى الماء إلى سابق حالته، فانهالت عليهم كتل المياه بقوة جبارة جارفة في اندفاعها المرعب جموعهم لتغمر كل من كان في المجرى وعلى رأسهم الفرعون وآل بيته وأمراء البلاط والوزراء وكبار رجالات الدولة، وكتبت النجاة فقط لأولئك الذين كانوا عند شاطىء البحر وفي مؤخرة الركب، وهؤلاء ومعهم بنو إسرائيل وقفوا مشدودين ومبهورين وهم يشاهدونهم تحت رحمة الأمواج العاتبة تتقاذفهم ذات اليمين وذات الشمال كما لو كانوا لعبة بين أيدي الأطفال، فمنهم من سكنت حركته ليستقر في قاع البحر، ومنهم من طرحته الأمواج جثة هامدة على ضفتي البحر.

أما الفرعون لأنه هو الذي أورد قومه موارد الهلاك فقد خصه الله تعالى بالذكر، وذلك عندما جوبه بحدة اندفاع المياه ترفعه تارة وتخفضه تارة أخرى، وهو في مواجهتها مسلوب الإرادة مسلوب القوة، مذهولاً عمن حوله، أيس تماماً من النجاة حياً، وأيقن أنه قاب قوسين أو أدنى من الموت غرقاً، حينئذ وجه كلامه لله تعالى قائلاً:

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾[٢].

---

(١) سورة الدخان: الآية ٢٤.

(٢) سورة يونس: الآية ٩٠.

إن إيمان الفرعون لم يكن على الإطلاق عن اقتناع قلبي ولكن ليتوسل به إلى دفع الموت عنه، فكأن هدفه ومقصوده إيمان كالذي آمن به بنو إسرائيل، وهو من جهته اعتراف وإقرار بصوابهم فيما هدوا إليه، فجعل من صلتهم بالله طريقاً له للإيمان، وذلك منه اعتراف ضمني بعدم معرفته بالله، إلا أنه سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهاً، وهو الآن يؤمن بهذا الذي سمع به. وزاد على ذلك قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، إذ كان قد سمع أيضاً من خلال حواره مع موسى أنه يدعوه كي يكون مسلماً، فنطق بما كان يسمعه، وأقحم نفسه ضمن من يشملهم الاسم، وتحق لهم الصفة، ولذلك لم يقل أسلمت بل قال من المسلمين، يلزمني ما يلزمهم ويجب عليّ ما يجب عليهم، فجاء إيمانه كإيمان الملجأ والمضطر مجملاً نتيجة للضيق الذي يعاني منه والمشقات التي يكابدها، وبلا تفصيل لجهله التام بتلك التفاصيل.

أجاب الله تعالى الفرعون على كلامه أو طلبه الذي اعترف فيه بالألوهية والربوبية لله تعالى فقال له قبل أن تدركه المنية ويهلك مع الهالكين:

﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾(١).

إن الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ مؤذن بانقضاء وقت الإيمان، إذ صدر عنه وهو مشرف على الموت غرقاً، وهو وقت لا ينفع فيه إيمان ولا تصح معه توبة، بل هو إيمان منكر يزيد في إنكاره أنه كان من قبل عاصياً لله مفسداً في الأرض، أصم أذنيه بإباء وتكبر عن سماع كلمة الحق وضرب بكل المعجزات الخارقة للعادة عرض الحائط، ثم بين له الحق عز وجل الغاية من إنجائه ببدنه، والمقصود من تلك الميتة البشعة في غمرات المياه، وهو أن يكون

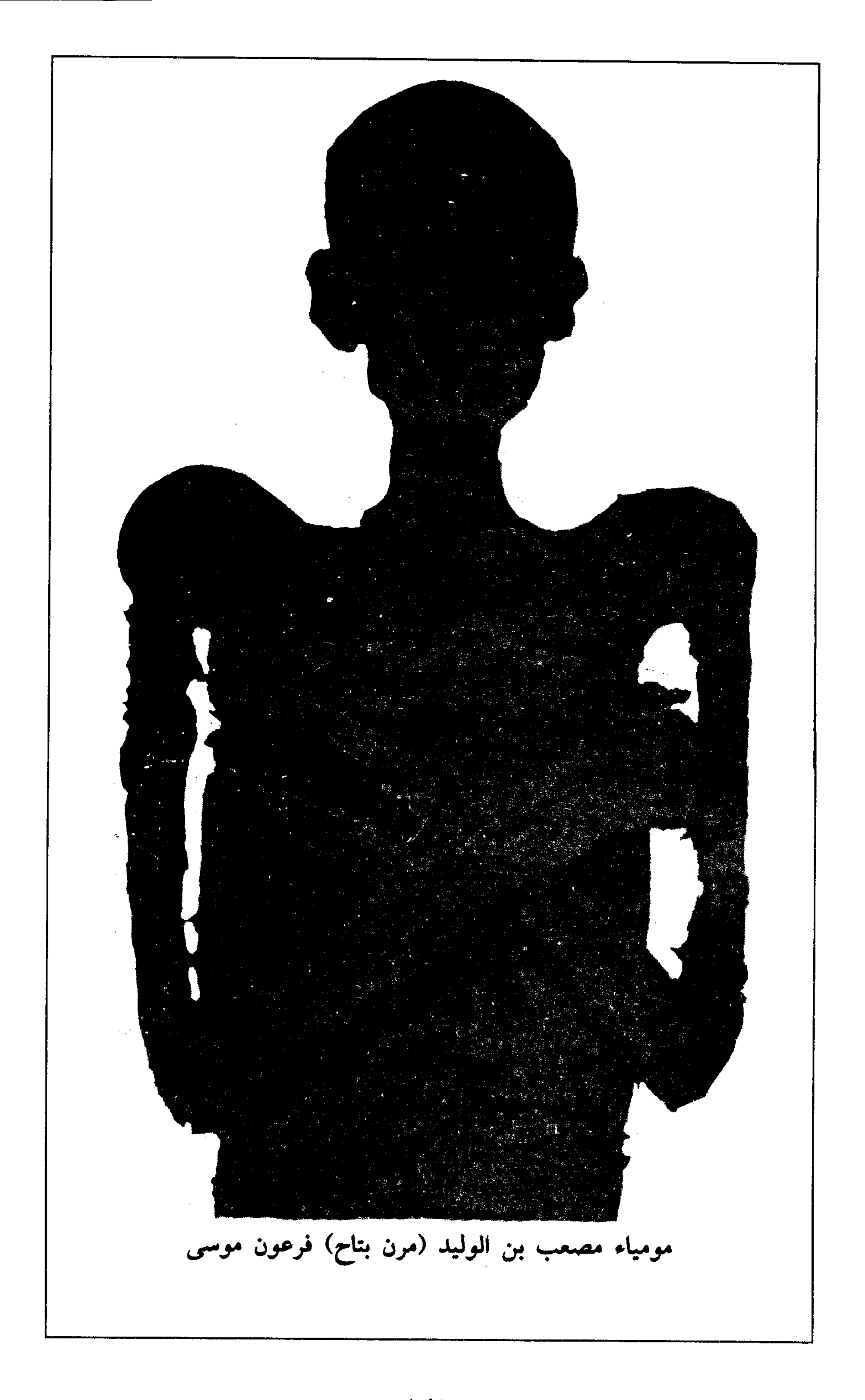
(١) سورة يونس: الآية ٩١ ـ ٩٢.

لمن وراءه من الناس ممن ليسوا معه ساعة الغرق وعلى امتداد القرون آية وعلامة، وعبرة تعتبر بها الأمم والشعوب.

وهذا ما حدث بالتحديد، فقد دفعت الأمواج بجثته إلى الشاطىء الغربي وألقتها بنجوة من الأرض جسماً بلا روح، وعلى الصورة والهيئة التي كان عليها كاملاً سوياً لم ينقص أو يتغير منه شيء، وأثناء بحث الناجين من جنده وتعقبهم لجثث قتلاهم عثروا على جثته كما وصفها الله تعالى سليمة لم تمس بسوء، وعلى مرتفع ظاهر من الشاطىء، فحملوه مع من حملوا من أمراء البلاط وكبار المسؤولين إلى عاصمة البلاد بر رع مس سو.

وكما تقضي الطقوس المتبعة في تجهيز الفراعنة لمثواهم الأخير، فقد حنطت جثة مصعب بن الوليد ودفن في المقبرة التي أعدها بنفسه في وادي الملوك على مقربة من مقبرة والده، وتعرض قبره للنهب المنظم عقب وفاته بفترة وجيزة، فاضطر المشرفون على المقابر الفرعونية إلى نقل مومياه إلى مقبرة أمون حتب حيث وضعت مؤقتاً في تابوت الفرعون ستخنت، ثم أهمل شأنه أو نسي من جراء ما تعرضت له البلاد من اضطرابات سياسية وقلاقل اجتماعية، وبقيت جثته أو مومياه مخبأة حيث وضعت خطأ حتى أواخر القرن الماضي حيث اكتشفت شخصيته وذلك عن طريق كتابة خشنة دونت على لفائف المومياء في مكان الكتف، ثم نقلت في بداية القرن العشرين إلى المتحف المصري.

وصدق الله القائل: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، فحتى لو لم يوجد اسمه مدوناً على كتفه كبرهان لا يقبل الجدل، فهناك شواهد كثيرة تؤكد بأن المومياء هي لمصعب بن الوليد، أبرزها الشبه الكبير في ملامح الوجه بينه وبين جده سيتي الأول ووالده رع مس سو، بل أن قسمات وجهه تكاد صورة ناطقة لقسمات وجه والده وعلى نحو لافت للنظر ومثير للإعجاب.



مومياء مصعب بن الوليد (مرن بتاح) فرعون موسى


رع مس سو

سيتي الأول أوجه
الشبه بين سيتي
الأول وابـــنـــه رع
مس سو والحفيد
مرن بتاح

وصدق الله القائل: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾، فإن عملية التحنيط الذي أجريت على جثته كانت ناجحة ودقيقة إلى حد مذهل، حيث ظل محفوظاً وبصورة تكاد تكون شبه كاملة لم يشبه أي تشويه من التشويهات التي أصابت مومياء غيره من الفراعنة، وخال تماماً من اللون الأسود والذي يتكون عادة بعوامل طبيعية ويشاهد تقريباً وبوضوح على معظم موميات الفراعنة.

والشيء الوحيد الذي شوه منظر وجهه هو حدوث تفرطح في الجزء اللين من الأنف، أما ما عداه من أجزاء البدن فبقيت على حالتها الأولى، حيث أتقن المحنطون عملهم على نحو بلغ حد الإعجاز، فعلى سبيل المثال حشيت حفرة الجمجمة بعد استخراج نخاعها بقطع صغيرة من الكتان الجميل الصنع وبعض البلسم، وحشيا المنخران بعجينة راتنجية، وكذلك وضعت طبقة من المادة نفسها على الفم والأذنين، كما وضعت لطعة سوداء في مكان الحاجبين، ووضعت طبقة رقيقة من اللون الأحمر على الوجه ولكنه تلاشى في بعض المواضع وظهرت تحته لطع بيضاء.

والشيء الذي لم يجد له أحد تفسيراً أو يعرف له مسوغاً معقولاً، أو يكشف عنه حتى الآن كشفاً يقربه من اعتقادات القوم، هو أن المحنطين أزالوا كل الأحشاء من الجسم وأبقوا على القلب في محله، دون حشوة أو إضافة مواد كيماوية حافظة إليه.

الدمار:

أودى الغرق ـ كما أشرنا من قبل ـ بحياة المئات من أمراء البلاط الفرعوني، وممن تجري في عروقهم الدماء الفرعونية وباختفائهم المفاجىء خلت البلاد تقريباً من أصحاب الحق الشرعي بحكم مناصبهم الدستورية في إدارة الدولة، بحيث أحدثت وفاتهم حالة من الفراغ السياسي أوشكت البلاد من جرائها على الانهيار الكامل، والمجتمع على التفكك والانحلال، ولكن عقلاء القوم ومن واقع مجريات

الأحداث التي تلت غرق الفرعون تداركوا أمر الحكم قبل أن يستفحل ويستغلق على العلاج. فبحثوا فيمن بقي حياً من آل فرعون وتنطبق عليه الشروط المعهودة في كل من يتبوأ عرش الفراعنة. فوقع اختيارهم وبدون عناء يذكر على (أمون مس) خليفة لمصعب بن الوليد في الحكم، وهو الذي نرجح أنه مؤمن آل فرعون.

والوقائع التاريخية هي خير شاهد ودليل نعضد به ما ذهبنا إليه وعلى رأسها مطابقة اسمه (أمون مس) مع أحد الأسماء المشهورة والمنسوبة لمؤمن آل فرعون وأعني به (سامون)، والذي يرد بمعنى أمون ابن، أي ابن أمون، وذلك ـ كما قلنا ـ أن كلمة مس وموس وسو وسا تأتي بمعان متقاربة مثل ابن ووليد وطفل وذو وغيرها، وتأخير كلمة مس أو تقديمها على اسم أمون من الإطلاقات الشائعة والمتواضع عليها في لسان القوم، وكثيرة الاستخدام مثل رع مس، وتحت مس، واح مس وتترجم إلى العربية: رع ولد، وتحت ولد، واح ولد، ولكنها تفهم عندهم بمعنى ابن رع وابن تحت وابن اح.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مؤمن آل فرعون خير من تنطبق عليه من الأحياء شروط ومواصفات الجلوس على العرش، فهو من آل فرعون، وابن أخ لمرن بتاح، وظل يشغل منصباً دستورياً رفيع المستوى في الدولة والبلاط، وأقصى عنه نتيجة لمواقفه المعارضة لسياسة الفرعون في قضية موسى، ويتمتع بشخصية قوية ومؤهلات علمية وثقافية عالية، وعقل واع متزن وصدر رحب، واستقلال في الرأي، وظهر كل ذلك جلياً في اعترافه المبكر قبل غيره من عقلائهم بصدق رسالة موسى، وجاءت الأيام لتثبت صحة مواقفه، وسلامة آرائه، وهو وحده الذي وقف بشجاعة وثقة ينافح الفرعون مبيناً له ولغيره مغبة التصدي لموسى ودعوته، ولو ألقى الفرعون آذاناً صاغية لحججه، وتنبه إلى شدة حرصه على مصلحة الأمة والبلاد لما آلت الأحوال إلى ما آلت إليه الآن.

لكل هذه الاعتبارات وقع اختيار القوم عليه وحده كخليفة لعمه مرن بتاح متجاهلين أو متغاضين عن مواقفه السابقة من الذات الفرعونية، ومع اقتناعهم بوجود غيره من البيت الفرعوني إلا أنهم قدروا للرجل فضله على غيره وقدرته على إدارة دفة الحكم وقيادة الأمة في هذا الظرف العصيب الذي مرغت فيه الذات الفرعونية بالوحل، وأوشكت فيه قواعد وأركان الدولة والمجتمع على الانهيار والتفكك.

وتكاد استنتاجات المؤرخين واجتهاداتهم في ضوء وثائق ووقائع تلك الفترة رغم غموضها وندرتها تتفق إلى حد كبير على أن أمون مس اعتلى عرش البلاد في ظروف شاذة، وبطريقة تخالف المعهود والمتبع في تنصيب الفراعنة. ومن هنا تعددت آراءهم وتضاربت أقوالهم، فيقول برستد شيخ المؤرخين في تاريخ الفراعنة.

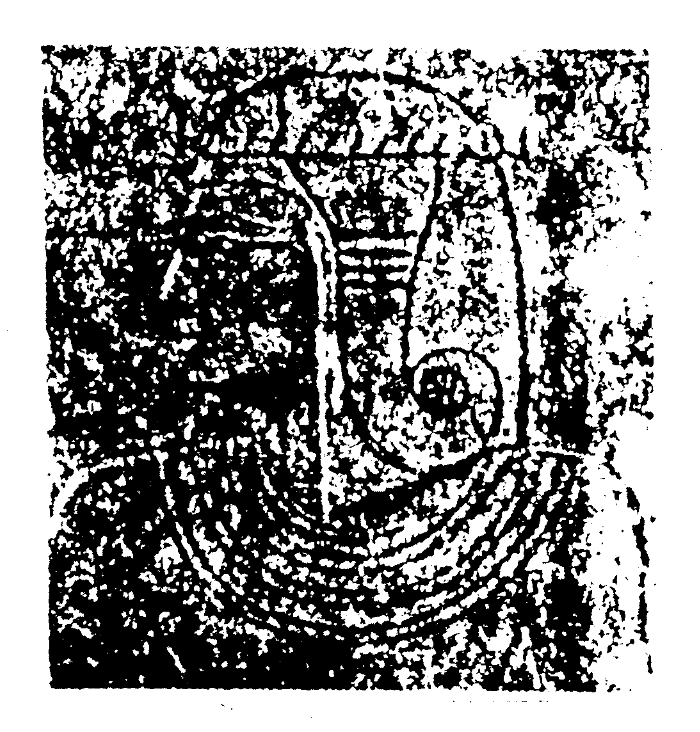
«لما توفي مرن بتاح حصل نزاع داخلي على العرش الفرعوني نجح فيه اثنان أولهما أمون مس، وكان ضعيف الحق في المطالبة به لأنه ارتكن في دعواه على علاقة قرابة تربطه بالبيت المالك، وكان أيضاً معادياً ومعارضاً لمرن بتاح»[1].

أما غيره من مؤرخي تلك الحقبة فقد أجمعوا على عدم توفر معلومات دقيقة وكافية عن كيفية انتقال السلطة من مرن بتاح إلى أمون مس، بل لا يعرف على وجه التحديد وكنتيجة طبيعية لاضطراب أحوال الدولة الطريقة التي قفز فيها للسلطة، مما جعل البعض منهم يصفه بأنه مدعي، وككل الأدعياء ارتقى العرش بالاغتصاب، ثم أشاع بين الناس أحقيته للعرش من خلال بنوته للأميرة تاخيت والتي كانت كما يرجح البعض واحدة من بنات رع مس سو، ولكنه ترجيح مشكوك فيه، إذ لا تحمل من الألقاب إلا لقب أم الملك العظمى، لا ابنة الملك ولا زوج الملك كما جرت العادة في ألقاب بنات الفراعنة.

---

(١) تاريخ مصر ـ جيمس هنري برستد ص ٣١٨.





أمون مس (ابن أمون)
خليفة مرن بتاح

غير أن النصوص الكتابية والتي عثر عليها بالقرنة ونسبت إليه وفيها تمجيد لأمون وللفرعونين سيتي الأول ورع مس سو، وبيان لحكمه وسلطانه الذي شمل شطري الوادي، أوعزت للبعض منهم على عدم استبعاد كونه من بيت رع مس سو، ولكنه لا يملك الحق الشرعي في اعتلاء سدة الحكم، فلما طمع فيه أوهم الناس بما يثبت حقه الطبيعي في الحكم ويرفعه إلى مصاف رع مس سو العظيم.

وعلى أي حال فقد حكم أمون مس البلاد لفترة قصيرة جداً تقدر بعامين، مات في نهايتها ميتة طبيعية ودفن كسائر الفراعنة في وادي الملوك، وكتب على مقبرته الاسم الفرعوني، رع ماعت ستبن رع أمون مس، وتعمد خلفاؤه على إتلاف مقبرته وتخريبها بصورة منظمة تدل على أنهم لم يعترفوا بتمليكه. وقصد أحدهم وعلى وجه أخص على محو النقوش والأشكال التي تزين المقبرة من الداخل بحيث لا يكاد يرى اليوم منها شيء.

أما الآثار التي تركها فشحيحة للغاية وقليلة الأهمية منها بالإضافة إلى الكتابة السابقة منظر يشاهد فيه أمون وهو يقدم له رمز العيد الثلاثين كتقليد عادي جرى عليه الفراعنة حتى ولو لم يكن الفرعون قد احتفل أصلاً به، وكذلك نجد اسمه منقوشاً في مكانين بارزين أحدهما على الجدار الأمامي لمدينة هابو، والآخر على المعبد الجنوبي في وادي حلفا.

وبوفاة أمون مس احتدم الصراع حول العرش الفرعوني بين الطامعين فيه سواء بين آل فرعون، أو بينهم وبين أولئك الذين رأوا أنفسهم أهلاً له من كبار رجالات الجيش والأعيان، حيث تمكن ثلاثة منهم للوصول إلى السلطة ولفترات قصيرة عدوا جميعاً في نظر المؤرخين مغتصبين للحكم، وليس لديهم أي حق فيه، ولأجل ذلك ساد أبان توليهم أمور البلاد التطاحن حول العرش والاضطراب والقلاقل، وأخيراً انفرط عقد الأمن تماماً.

وهناك بردية تعرف اليوم باسم سالت ١٢٤ محفوظة بالمتحف البريطاني كشفت جانباً يسيراً عن ضعف هيبة السلطة وارتخاء قبضتها، حيث روت أن أحد رؤساء العمل في دير مدينة طيبة كان يقوم بأعمال السرقة والنهب والقتل بجرأة عجيبة وتحت سمع السلطات وبصرها، ودون خوف من عقاب رادع، والواقعة عبارة عن شكوى للمسؤولين عما ارتكبه المدعو بنب من جرائم لا حصر لها تتعدى القتل والسرقة إلى انتهاك حرمة المعابد ومقابر الموتى إلى جانب استغلال سلطاته استغلالاً سيئاً، دون أن يبادر أحد إلى مساءلته أو التصدي له، مما يدل على استشراء الفساد في الدولة والمجتمع إلى حد وقفت الحكومة بإزائه عاجزة لا حول لها ولا قوة.

ولعل ما لم تشر إليه الوثائق عن تلك الحقبة التي ترهل فيها كل شيء، وكان سبباً في الفساد الإداري والخلقي هو الخراب الذي عم البلاد في مجالات الحياة المختلفة كالزراعة والتجارة والعمران واجتاح البلاد كالوباء، وهو الذي ذكره الله تعالى في نهاية قصة موسى مع الفرعون، فقال تعالى:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾[1].

وبوفاة آخر فراعنة هذه الفترة والمحسوب تاريخياً على الأسرة التاسعة عشر دخلت البلاد في حقبة من الفوضى الشاملة، ومرت بالمجتمع سنوات من غير حكومة ولا سلطة ولا فرعون، فتقاسم العظماء وقادة الجيش السلطة، يتنازعون على حطام الدنيا، ويقتل بعضهم بعضاً عند اللزوم، وفي ظل هذا الواقع المزري تمكن سوري يدعو بارسو من الأسرات الأجنبية العديدة المقيمة بالبلاد من فرض

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

نفسه ملكاً يعنيه مجموعة من قطاع الطرق، فنهب الممتلكات وسام الناس خسفاً.

ولما انتقل أمر البلاد إلى الأسرة العشرين، وصف رع مس سو الثالث تلك الفترة من تاريخهم بقوله:

«مرت أعوام على مصر لم يكن فيها حاكم، وإنما وقع الحكم قسمة بين الأعيان وأمراء المدائن فأخذوا يحاربون بعضهم بعضاً، وأصبح الرجل يذبح صاحبه بلا حياء ولا خوف من قانون، ثم أعقب ذلك عصر لم تعرف فيه البلاد ملكاً، ثم جاء وقت أصبح فيه غريب يقال له بارسو جاء من فلسطين أميراً أرغم الناس على أن يدفعوا له الجزية، وكانت له عصابة أخذ يجوب بها أرض الوادي ويستعين بها على نهب أرزاقها ونفائسها، وكان ينظر إلى أرباب البلاد كما ينظر إلى الناس، فلم يفرق بين الآلهة والناس، وحرمت البلاد في عهده من الأضحيات والقرابين، ثم رضي الآلهة عن مصر فأجلسوا على عرشها من أولادهم ملكاً يقال له ست نخت استطاع أن يحكم البلاد حكماً شرعياً من أقصاها إلى أدناها»[1].

---

(١) مصر والشرق الأدنى القديم ج (٣) محمد بيومي مهران ص ٢٩٤.

المصادر



١ - القرآن الكريم.

٢ - أحمد قدري، المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الأمبراطورية ١٥٧٠ - ١٠٨٧ ق. م. هيئة الآثار المصرية - القاهرة، بدون تاريخ.

٣ - ابن كثير، أبو الفداء الحافظ عماد الدين، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٦.

٤ - ابن كثير، أبو الفداء الحافظ عماد الدين، قصص الأنبياء، تحقيق السيد الجميلي، المكتب الثقافي - القاهرة، ١٩٨٩.

٥ - ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ - المجلد الأول، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٥.

٦ - أدولف أرمان وهرمان رانكة، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة - بدون تاريخ.

٧ - أندرية إيمار وجانين أوبواية، تاريخ الحضارات العام - المجلد الأول - ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات بيروت - ١٩٨١.

٨ - أنطوان زكرى، مفتاح اللغة المصرية القديمة، بدون دار نشر وبدون تاريخ نشر، طبع في القاهرة.

٩ - توفيق أحمد عبد الجواد، عمارة حضارة مصر الفرعونية، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ١٩٨٤.

١٠ - جميس هنري برستيد، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي. ترجمة حسن كمال. مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٠.

١١ - الرازي، محمد فخر الدين بن خطيب الري، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٠.
١٢ - الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٨٦.
١٣ - سليم حسن، مصر القديمة المجلد ٦ و ٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ١٩٩٢.
١٤ - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك - المجلد الأول، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٧.
١٥ - الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة - بيروت، ١٩٨٨.
١٦ - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.
١٧ - علي فهمي خشيم، آلهة مصر العربية، الدار الجماهيرية للنشر - مصراته ودار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٠.
١٨ - الكتاب المقدس، جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، طبع في مطابع جامعة كمبردج، ١٩٧٠.
١٩ - محمد الطاهر عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية تونس - ١٩٨٤.
٢٠ - محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩.
٢١ - محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ج (٣) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣.
٢٢ - محمد علي كمال الدين، الشرق الأوسط في موكب الحضارة ج (١) الحضارة المصرية القديمة، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، بدون تاريخ.
٢٣ - النيسابوري، أبو إسحاق أحمد بن محمد، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، مكتبة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٥٤.
٢٤ - نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم ج (٤) الحضارة المصرية القديمة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.

٢٥ ـ وأليس بودج: الساكنون على النيل، ترجمة قدري محمد حسين، مطبعة الديواني، بغداد ١٩٨٩.

●●●